الحياة في الخليج في العصور الوسطى

في ضوء مشاهدات الرحالة ابن بطوطة

دراسة بقلم

دكتور حامد زيان غانم زيان

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب

جامعة الإمارات العربية المتحدة

دار القلم

الإمارات العربية

دبي

الحياة في الخليج في العصور الوسطى

في ضوء مشاهدات الرحالة ابن بطوطة

الحياة في الخليج في العصور الوسطى

في ضوء مشاهدات الرحالة ابن بطوطة

دراسة بقلم

دكتور حامد زيان غانم زيان

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب
جامعة الإمارات العربية المتحدة

دار القلم العربي
الإمارات العربية
للنشر والتوزيع

دبي - طريق النفق - بناية الشيخ راشد القديمة.
هاتف ٤٣٣٨٨٦ - ص.ب ١١٨١٧ - برقيًا: قلمكم - تلكس ٤٦٩٦١ منى يو أم

الطبعة الأولى

١٩٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ازداد الاهتمام في الآونة الأخيرة بدراسة تاريخ منطقة الخليج وذلك للأهمية المتزايدة لتلك المنطقة. والواقع أن منطقة الخليج لعبت دوراً هاماً في تاريخ العالم قديماً ووسيطاً وحديثاً في شتى الميادين خاصة في ميدان النشاط التجاري.

وإذا كان هذا الاهتمام قد تركز حول دراسة التاريخ الحديث والمعاصر لمنطقة الخليج، فإننا في أمسّ الحاجة إلى التعرف على تاريخ المنطقة عبر عصور التاريخ، وما كانت عليه مظاهر الحياة بها سواء كانت اجتماعية أم دينية أم اقتصادية أم سياسية، وذلك لربط الماضي بالحاضر والتعرف على تراث الأجداد وأنماط حياتهم.

وتعتبر كتابات الرحالة من المصادر الهامة في مثل

هذا النوع من الدراسة، ويعود السر في ذلك إلى أن الرحالة عادة ما يكون غريباً عن المجتمع الذي يقوم بزيارته والتحدث عنه، لذلك فإنه لايهمل وصف كل ما يسترعي نظره ويشد انتباهه خاصة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية التي قد تكون شيئاً عادياً لسائر الكتاب والمؤرخين فيهملون تدوينها والحديث عنها.

ومن حسن الطالع أن قام بزيارة منطقة الخليج الرحالة الشهير ابن بطوطة المغربي الأصل، الذي اختلفت عاداته وتقاليده عن عادات أهل الشرق بصفة عامة وأهل الخليج بصفة خاصة. لذلك قام بوصف كل ما شاهده من حياة وظواهر اجتماعية واقتصادية ببلدان المنطقة وصفاً دقيقاً، مما جعل تلك المشاهدات والأوصاف بمثابة مصدراً أصيلًا للحياة في الخليج في العصور الوسطى.

أما ابن بطوطة هذا فهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، المولود بطنجة عام ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م، ويعود أصله إلى قبيلة لواته البربرية. وقد نال ابن بطوطة قدراً من التعليم لا بأس

به أهّله لأن يتولى في بعض سنوات رحلته وظيفة القضاء[1].

وما أن بلغ ابن بطوطة مرحلة الشباب حتى عزم على الخروج من طنجة عام ٧٢٥ هـ/١٣٢٥ م لأداء فريضة الحج[2]، غير أن هذه الرحلة طالت به كثيراً إذا استمرت قرابة ربع قرن من الزمان واشتملت على زيارة عدد كبير من البلدان والأقطار، ولم تقتصر على مجرد الزيارة وإنما تعدتها إلى الإقامة الطويلة بتلك البلدان[3].

وقد قام ابن بطوطة بزيارة منطقة الخليج مرتين خلال رحلته هذه، الزيارة الأولى كانت خلال عامي ٧٣٠ - ٧٣١ هـ/١٣٣٠ - ١٣٣١ م وهي التي تجول

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، جـ٤ ص١٠٠.

(٢) يقول ابن بطوطة في مقدمة رحلته: «كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس التالي من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام».

(٣) ابن حجر: المصدر السابق، جـ٤ ص١٠٠، كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، جـ١ ص(٤٢١ - ٤٢٥).

خلالها بمعظم مدن وموانى الخليج بدءاً من ظفار التي تعتبر البوابة الجنوبية للخليج[1] إلى أن وصل إلى البحرين ومنها اتجه إلى اليمامة ثم إلى مكة لأداء فريضة الحج عام ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م. أما الزيارة الثانية فكانت عام ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م واقتصرت فقط على المرور بعدة موانى مُطلة على خليج عمان وبحر العرب مثل ميناء كلبا ثم ظفار وذلك أثناء عودته إلى المغرب، ولا تحتل نفس أهمية الزيارة الأولى.

وتعتبر ملاحظات ابن بطوطة أثناء الزيارة الأولى انعكاساً صادقاً لما ساد منطقة الخليج من حياة، ومن حسن الطالع أيضاً أن ابن بطوطة حفظ لنا تلك الملاحظات في مذكراته المعروفة باسم «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»[2].

وفي هذه الدراسة سنحاول التجول مع ابن بطوطة في مختلف مدن وموانى الخليج التي زارها لنتعرف معه

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص ٨٧.

(٢) المعروف أن حاكم فاس السلطان أبو عنان (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ/١٣٤٨ - ١٣٥٨ م) أمر ابن بطوطة بعد عودته، بإملاء مشاهداته على الكاتب ابن جزي لتدوينها.

على ما كانت عليه الحياة في الخليج في العصور الوسطى.

ونسأل الله التوفيق للبحث في صفحات تاريخنا الإسلامي.

حامد زيان غانم

العين في { ١٢ ربيع الأول ١٤٠٥ هـ
٥ ديسمبر ١٩٨٤ م

زيارة ابن بطوطة لظفار

أخذ حديث ابن بطوطة عن ظفار جزءًا كبيراً من مجمل حديثه عن رحلته للخليج بصفة عامة، ويعود السر في ذلك إلى أن ظفار كانت تعد في تلك الفترة مركزاً هاماً للنشاط التجاري، ومن الملاحظ أن ظفار تمثل البوابة الجنوبية الكبرى للخليج حيث أنها هي وسائر الموانى العمانية الممتدة على ساحل البحر العربي تكونان معاً مستودعاً كبيراً للتجارة الشرقية التي تقوم عليها الملاحة والتجارة بالخليج نفسه.[١] وظفار كما أشار ابن بطوطة[٢] « هي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ». ويحدد صاحب كتاب صفة جزيرة العرب[٣] طولها من المغرب بأربع وستين درجة ونصف، ومن المشرق بمئة وخمس عشرة

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص ٨٧.

(٢) تحفة النظار، ص ٢٥١.

(٣) الهمداني: ص ٦٤ - ٦٥، أنظر أيضاً القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٥ ص ١٢.

ونصف أما عرضها فأربعة عشر جزءًا. وتقع ظفار الى الشرق من حضرموت[١]، ويذكر أبو الفدا أنها قاعدة بلاد الشحر[٢].

الأحوال السياسية بظفار

وقد خضعت ظفار أثناء زيارة ابن بطوطة لها لحكم الملك المغيث ابن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن الملك المجاهد[٣]. حيث كانت ظفار تابعة من الناحية السياسية لحاكم اليمن الذي يقوم بتقليد أميرها

---

(١) Miles: the Countries and the tripes of the persian Gulf, p.498.

(٢) تقويم البلدان، ص٩٢ - ٩٣، وأنظر أيضاً: ياقوت: معجم البلدان، جـ٤ ص٦٠، رحلات ماركو بولو، ص٣٤٠.

(٣) هو الملك المجاهد سيف الإسلام ابن الملك المؤيد داود، تولى حكم اليمن بعد وفاة والده عام ٧٢١ هـ/١٣٢١م. وقد ساءت أحوال اليمن في عهده واضطربت الأمور بها، وقد أشار أبو الفدا الذي كان معاصراً لتلك الفترة إلى ما ساد اليه من فوضى واضطراب بقوله: «وبقي أمر مملكة اليمن مضطرباً غير منتظم الأحوال». راجع: المختصر في أخبار البشر جـ٤ ص٩١ - ٩٢، وانظر أيضاً: عبد الرحمن بن الربيع: بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، ص٩٠ وما بعدها.

الحكم[1]. وكان هذا هو حال الملك الفائز والد الملك المغيث، فقد أشار ابن بطوطة إلى أن الذي ولاه حكم ظفار هو حاكم اليمن وقرر عليه أن يرسل له هدية وأموال في كل عام، واستمر الحال على ذلك طيلة حياة الفائز، لكن بعد وفاته وولاية ابنه الملك المغيث حكم ظفار امتنع عن إرسال الأموال والهدايا المقررة عليه لحاكم اليمن وأعلن استقلاله بحكم ظفار، فما كان من حاكم اليمن إلا أن أرسل ابن عمه على رأس جيش لمحاربة المغيث وانتزاع حكم ظفار منه. غير أن يد القدر لم تمهل قائد هذا الجيش لتنفيذ مهمته، فما أن هم بالخروج والتوجه الى ظفار حتى «سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعاً»، وأدى هذا إلى أن عدل الملك المجاهد حاكم اليمن عن رأيه في محاربة الملك المغيث وانتزاع ظفار منه وتركه وشأنه[2]. وعلى هذا النحو أصبح حكام ظفار مستقلين تماماً عن حكم اليمن.

---

(١) رحلات ماركوبولو، ص ٣٤٠.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار؛ ص ٢٥٢-٢٥٧.

الادارة ونظام الحكم بظفار

وقد سكن حاكم ظفار في قصره الفخم داخل المدينة، الذي اتخذه أيضاً مقراً للحكم والادارة. وقد وصف ابن بطوطة ذلك القصر بقوله: «عظيم فسيح والجامع بإزائه»[1]، كما أشار الى مختلف الأنظمة الادارية التي أحاطت بحاكم ظفار وما شاهده من ترتيب أمور الحكم بها بقوله: «ومن عادته - أي عادة سلطان ظفار - أن تضرب الطبول والبوقات والأنفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر[2]، وفي كل يوم اثنين وخميس تأتي العساكر الى

---

(١) تحفة النظار، ص ٢٥٧.

(٢) كان من العادات السائدة منذ القدم دق الطبول وإطلاق الأبواق بمختلف الإيقاعات والأصوات على أبواب السلاطين والحكام. وقد أشار القلقشندي إلى أن الاسكندر الاكبر كان معه أربعون حملاً طبلخاناه. كذلك كان لكل دولة نظام معين في دق الطبول ومواعيد محددة لذلك، فعلى سبيل المثال كانت الطبول تدق بمصر عصر سلاطين المماليك بقلعة الجبل مرتين في الليلة الواحدة، كذلك كان المماليك يصحبون الطبول والأبواق في الأسفار والحروب.

راجع: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤ ص ٨ - ٩.

بابه[1]، فيقفون خارج المشور[2] ساعة وينصرفون، والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد إلا في يوم الجمعة فيخرج للصلاة ثم يعود الى داره. ولا يمنع أحداً من دخول المشور، وأمير جاندار[3] قاعد على بابه وإليه

---

(١) يبدو أن معظم التنظيمات العسكرية التي كانت سائدة بظفار في ذلك الحين كانت قريبة الشبه بما كان سائداً في مصر زمن المماليك، من ذلك ما يشير إليه القلقشندي إلى أنه «من عوائد أمراء العسكر بالحضرة السلطانية أنهم يركبون من يومي الإثنين والخميس في الموكب منضمين على نائب السلطنة الكافل إن كان، وإلا فعلى حاجب الحجاب، ويسيرون تحت القلعة مرات، ثم يقفون بسوق الخيل وتعرض عليهم خيول المناداة، وربما نودي على كثير من آلات الخيل والخيم والحزكاوات والأسلحة».

راجع: صبح الأعشى، حـ ٤ ص ٦٢.

(٢) المشور هو مجلس المشورة، وقد وجد هذا النظام أيضاً في مصر عصر المماليك حيث كان هناك مجلس للمشورة برئاسة السلطان وعضوية كل من أتابك العسكر والخليفة العباسي والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعددهم أربعة وعشرون أميراً (راجع: سعيد عاشور: العصر المماليكي ص٣٥٢) وقد أشار القلقشندي إلى أن الإشارة من الوظائف الهامة في عصر المماليك إذ كانت تأتي في المرتبة بعد نيابة السلطنة والوزارة. (راجع: صبح الأعشى، جـ ١١ ص ١٥٣ وما بعدها).

(٣) ذكر القلقشندي أن إمرة جاندار صاحبها يستأذن على دخول =

ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية، وهو يطالع السلطان ويأتيه الجوب للحين »[1].

ويتضح لنا مما سبق أن سلطان ظفار الملك المغيث كان يميل الى التستر وعدم الظهور كثيراً على رعيته. ومن ناحية أخرى إذا حدث وخرج من يوم غير يوم الجمعة فكان يخرج مستتراً؛ وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك بقوله «وإذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه من مماليكه إلى خارج المدينة وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب، فيركب السلطان ونديمه في المحمل بحيث لا يرى »[2].

ولا يقف ابن بطوطة عند حد الحديث على هيئة سلطان ظفار أثناء خروجه وإنما يحدثنا كذلك عن علاقة سلطان ظفار برعيته أهل البلد، ومدى خوفهم من مواجهته حيث يقول: «وعادته أن لا يعارضه

= الأمراء للخدمة، ويدخل أمامهم إلى الديوان، وصاحبها كالمتسلم للباب. (راجع: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٠).

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

أحد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا بشكاية ولا غيرها، ومن تعرض لذلك ضُرب أشد الضرب، فتجد الناس إذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها »[1]!!.

أما وزير ظفار الفقيه محمد العدني، فلم يتمتع بكفاءة عالية تؤهله لشغل هذا المنصب وادارة شئون الدولة، فلم يكن سوى معلم للصبيان دان له السلطان الملك المغيث بتعليمه إياه القراءة والكتابة، لذلك عاهده وهو في صباه أن يستوزره إن تولى الحكم، وبالفعل بعد أن تقلد المغيث حكم ظفار وفى بوعده السابق واستوزره، غير أن الفقيه محمد العدني « لم يكن يحسنها - أي يحسن القيام بأمر الوزارة - فكان الاسم له والحكم لغيره » على حد تعبير ابن بطوطة[2].

وهكذا يمكن لنا أن نتصور الحالة التي كانت عليها إدارة ظفار أثناء زيارة ابن بطوطة لها، فالسلطان ميالٌ للتستر والبعد عن الرعية، ومن يحاول أن يحدثه أو يشكو له أمراً « ضُرب أشد الضرب » مما

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

دفع الأهالي للهروب من طريقه خشية ملاقاته وإنزال العقوبة بهم. أضف الى هذا عدم تمتع الوزير بكفاءة عاليـة تساعده في إدارة شئون الحكم مما جعل السلطة تخرج عن يده ويتحكم أصحاب المصالح الشخصية في أحوال ظفار.

الحالة الاقتصادية بظفار

وقد تمتعت ظفار بأهمية اقتصادية كبيرة زمن ابن بطوطة لكونها تطل على بحر العرب وما كان لها من موانى جيدة، كل ذلك أدى إلى أن تفد إليها السفن والتجار والبضائع من كل صوب خاصة من الهند[١] وذلك على الرغم من بعد المسافة بينها وبين الهند، فقد أشار ابن بطوطة إلى أنه «يقطع البحر فيما بينها - أي ظفار - وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل»[٢]. ومن المعروف أن ظفار كانت على

---

(١) رحلات ماركوبولو: ص ٣٤٠.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥١.

علاقة وطيدة مع الهند وكانت السفن والتجار لا تنقطع بينهما[١].

وكانت التجارة تشكل مورداً هاماً وأساسياً لاقتصاديات ظفار، وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك بصراحة بقوله: «وهم أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها»[٢]. وقد دفعهم ذلك إلى بذل الجهد لاجتذاب التجار إلى موانيهم من ذلك ما أشار إليه ابن بطوطة بقوله: «إذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل وصعدوا إلى المركب، ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللربان وهو الرئيس وللكراني[٣] وهو كاتب المركب، ويؤتى إليهم بثلاث أفراس فيركبونها،

---

(١) رحلات ماركوبولو، ص ٣٤٠. وانظر كذلك: حسن صالح شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص ٢٨ - ٣٠.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥١.

(٣) الكراني لفظه دخيلة من اللغات الهندية والفارسية ومعناه الموظف في المكتب مثل المحاسب أو الكاتب هذا بالإضافة إلى ما ذكره ابن بطوطة من قيامه بالعمل على المركب. راجع: فالح حنظل: معجم الألفاظ العامة في دولة الإمارات العربية المتحدة، ص ٥٠٨.

وتضرب أمامهم الأطبال والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان، فيسلمون على الوزير وأمير جندار، وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثاً، وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان » ويفصح ابن بطوطة عن سبب هذا الاستقبال الحافل وذلك الكرم الزائد بقوله: « وهم يفعلون ذلك استجلاباً لأصحاب المراكب »[1].

أما أنواع البضائع التي كانت تصدر وتستورد من وإلى ظفار فلم يهمل ذكرها ابن بطوطة. ويأتي في مقدمة البضائع التي تصدرها ظفار: الخيول العربية[2]. وقد أشار أبو عبيد البكري[3] (من جغرافيي القرن الخامس الهجري) إلى أن ظفار اشتهرت بالخيل العراب والنضار. وكانت ظفار تمثل مركزاً هاماً من مراكز تصدير الخيول العربية وذلك

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٢.

(٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٢٥١، وقد أشار ماركوبولو وهو معاصر لابن بطوطة إلى ما اشتهرت به ظفار من تجارة الخيول وما تجنيه من وراء ذلك من مكاسب. راجع رحلات ماركوبولو ص ٣٤٠.

(٣) الممالك والمسالك (القسم الخاص بجزيرة العرب تحقيق عبد الله يوسف غنيم) ص ٣٥.

بالإضافة إلى اليمن وحضرموت وعمان والبحرين وكيش وهرمز[١]. ومن الجدير بالذكر أن تجارة الخيول هذه كانت قديمة فقد أشارت بعض المراجع إلى أنه كان يتم تصدير الخيول العربية إلى الهند منذ زمن الخلفاء الراشدين[٢].

وما دمنا في معرض الحديث عن بعض المنتجات التي تقوم ظفار بتصديرها، فلا بد من ذكر ما تقوم به ظفار من انتاجه وتصديره خاصة اللبان الجاوي الذي كان يستخدم في تحضير الأدوية[٣]. وقد أشار ياقوت الحموي[٤] إلى أن «اللبان لا يوجد في الدنيا إلا في جبال ظفار، وهو غلة لسلطانها، وأنه شجر

---

(١) الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٢٢، راجع كذلك الهمداني حيث ذكر أنواع الخيل التي تربى في الجزيرة العربية (صفة جزيرة العرب، ص ٣٢٠-٣٢١)، رحلات ماركوبولو، ص ٣٤٠.

(٢) Heyd: Histoire de Commerce, T 2, p 135.

(٣) ابن الفقيه: البلدان، ص ١٧، القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٥، ماركوبولو: رحلاته ص ٣٤٠.

(٤) معجم البلدان، جـ ٤ ص ٦٠، مراصد الاطلاع جـ ٢ ص ٩٠٤ وانظر أيضاً: القزويني: آثار البلاد، ص ٥٥.

ينبت في تلك المواضع... ويجتنيه أهل تلك البادية، وذلك أنهم يجيئون إلى شجرته ويجرحونها بالسكين فيسيل اللبان منه على الأرض ويجمعونه ويحملونه إلى ظفار، فيأخذ السلطان قسطه ويعطيهم قسطهم ولا يقدرون أن يحملوه إلى غير ظفار أبداً، وان بلغه عن أحد منهم أنه يحمله إلى غير بلده أهلكه».

كذلك كان أهل ظفار يقومون بتصدير بعض منتجاتهم من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية، وقد أشار ابن بطوطة الى أنه يصنع بظفار «ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جداً»[1]. وبالإضافة إلى ذلك كان أهل ظفار يصدرون العسل الذي يصنعونه من شجر جوز الهند إلى كل من الهند والصين واليمن[2].

أما البضائع المجلوبة إلى ظفار خاصة من الهند فكانت كثيرة يأتي في مقدمتها الأرز الذي يعتبر من

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٢.

(٢) راجع فيما بعد طريقة صنع أهل ظفار للعسل من شجر جوز الهند.

أهم ما يعتمد عليه أهل ظفار من غذائهم، وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة[1] بقوله: «والأرز يجلب إليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم». كذلك استورد أهل ظفار من الهند الملابس وغيرها من البضائع التي كانوا يقومون بإعادة تصديرها مرة أخرى إلى سائر الانحاء مثل اليمن أو شرق أفريقيا أو إلى بقية بلدان الجزيرة العربية[2].

ومن الجدير بالذكر أن التبادل التجاري مع الهند كان أهم المعالم التجارية ليس بظفار وحدها وإنما في كل بلدان الخليج، فتشير المصارد إلى أن بضائع الهند خاصة التوابل تدفقت بصورة كبيرة على ظفار وغيرها من مدن الخليج التجارية مثل القرنفل والدارصيني وأنواع العقاقير المختلفة والصندل الأبيض والأبنوس وجوز الهنـــد وجلود النمر والفلفـــل الأسود والأبيض[3]. ونتيجة ذلك زادت الروابط التجارية

---

(١) تحفة النظار، ص ٢٥١.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٢، القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٥ ص ٥٥، Heyd: Hist. de Commerce T 1, p 35.

(٣) راجع: الجاحظ: التبصر بالتجارة ص ٣٣، القلقشندي: صبح =

بين الهند وسائر بلدان الخليج. ومن الملاحظ أن هذه العلاقات التجارية القوية بين الهند وبقية بلدان الخليج لم تكن فقط زمن ابن بطوطة، وإنما تمتد موغلةً عبر عصور التاريخ فتعود إلى العصور القديمة وقبل ظهور الإسلام(١).

وبالإضافة إلى التجارة، كان صيد السمك يشكل مورداً اقتصادياً ثانياً لظفار فقد اشتغل العديد من أهلها بصيد السمك، وأشار ابن بطوطة(٢) إلى أن

= الأعشى، جـ ٥ ص٧٣، توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٢٨٩، وعن الفلفل الأسود والأبيض راجع: ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية جـ ٣ ص١٦٦.

ومن المعروف أن الذي اهتم بتجارة التوابل جماعة من التجار عرفوا بالكارمية وهم الذين قاموا بعملية استيراد التوابل من الهند وبقية بلدان الشرق الأقصى وتسويقها في مختلف الأنحاء، ويشير كثيراً من الباحثين إلى أن اسم الكارمية صار علماً على كل من يعمل في تجارة التوابل.

انظر: Dayclive: A hist. of Commerce, p 78-81.

(١) السيد محمد يوسف: علاقات العرب التجارية مع الهند، ص ١٠-١٦.

Miles: op. cit, p 356

(٢) تحفة النظار ص ٢٥١.

«أكثر سمكها النوع المعروف بالسردين» الذي امتلأت أسواق ظفار به، وقد وصف ابن بطوطة هذا السمك بأنه «في النهاية من السمن». ونتيجة لامتلاء أسواق ظفار بالسردين وعدم القيام بالنظافة الكاملة في تلك الأسواق عمَّ تلك الأسواق القذارة والروائح الكريهة، وقد استرعى ذلك نظر ابن بطوطة وتحدث عنه قائلاً: «وهي من أقذر الأسواق، وأشدها نتناً، وأكثرها ذباباً»(١).

ومن المفيد أن نذكر أن أهل ظفار لم يعتمدوا وحدهم على السمك في غذائهم وإنما كان كذلك بالنسبة لدوابهم. وكان هذا الشيء غريباً على ابن بطوطة واعتبره من العجائب فلم يسبق له أن شاهد بالمغرب أو في سواها من البلدان التي زارها حتى وصوله إلى ظفار أن تقوم الدواب بأكل السمك، وتتضح لنا دهشة ابن بطوطة من قوله: «ومن العجائب أن دوابهم إنما علفها من هذا السردين، وكذلك غنمهم، ولم أرَ ذلك في سواها»(٢).

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) تحفة النظار، ص ٢٥١. =

ومن الجدير بالذكر أن صائدي السمك بظفار اتخذوا لسكناهم قرية خاصة بهم شاهدها ابن بطوطة وقال عنها إنها تبعد عن ظفار « مسيرة نصف يوم ». وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كثرة أعداد الأهالي الذين اشتغلوا بمهنة الصيد.

وبالإضافة إلى التجارة وصيد السمك احتلت الزراعة مكاناً هاماً في حياة أهل ظفار وشكلت مورداً اقتصادياً كبيراً لهم.

وقد اعتمدت الزراعة بظفار على مياه الآبار، التي اشتهرت بعمق مائها، وأشار ابن بطوطة إلى ذلك بقوله: « وهم يسقونها - أي مزروعات ظفار - من آبار بعيدة الماء ». وبالطبع لم تكن آلات رفع المياه الحديثة قد اخترعت بعد، لذلك كانوا يقومون

= أشار ابن حوقل - وهو من جغرافيي القرن الرابع الهجري؛ إلى أن منطقة ظفار وما حولها من مدن مثل الأحقاف يقوم اقتصادها على الدواب مثل الابل والماعز وهذه الدواب تعلف بالسمك الصغار الذي أطلق عليه ابن حوقل اسم « الورق ». راجع: صورة الأرض، ص ٣٨. ومن الجدير بالذكر أنه ما زالت حتى اليوم تعلف الدواب في بعض بلدان منطقة الخليج بالسمك.

باستخراج المياه من الآبار بالطرق اليدوية، وقد ترك لنا ابن بطوطة صورة حية عن كيفية استخراج المياه من آبار ظفار على النحو التالي: «وكيفية سقيهم أنهم يصنعون دلواً كبيرة ويجعلون لها حبالاً كثيرة، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر، ويصبونها في صهريج يسقون منه»[1].

أما أهم المزروعات بظفار فكانت القمح، الذي ذكر ابن بطوطة أنهم يسمونه العلس[2]، وكذلك الذرة والقطن.

ومن ناحية أخرى فقد استرعى نظر ابن بطوطة ما امتلأت به ظفار من البساتين الحاوية على العديد من أشجار الفاكهة، خاصة أشجار الموز الكبير الحجم اللذيذ الطعم، وقد أكد ابن بطوطة هذه الحقيقة

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥١.

(٢) ذكر ابن البيطار أن العلس هو الأشغالية بعجمية الأندلس، وهو صنفان أحدهما يوجد فيه حبة والآخر يوجد فيه حبتان. والخبز المصنوع منه أقل غذاءً من خبز الحنطة.
راجع: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية جـ ٣ ص ١٣١.

بقوله: «وزنت بمحضري - أي أثناء حضوره - حبة منه، فكان وزنها اثنتي عشرة أوقية، وهو طيب المطعم شديد الحلاوة»[1].

كذلك أشار ابن بطوطة إلى أنه يزرع بظفار أشجار التنبول والنارجيل وهما من مزروعات الهند[2]، أما التنبول فيحدثنا ابن بطوطة عنه فيقول: «والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالي العنب، ويصنع له معرشات من القصب كما تصنع لدوالي العنب. أو يغرس في مجاورة شجر النارجيل فيصعد فيها كما تصعد الدوالي وكما يصعد الفلفل، ولا ثمر للتنبول وإنما المقصود منه ورقه، وهو يشبه ورق العليق، وأطيبه الأصفر، وتجتنى أوراقه في كل يوم».

«وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيماً شديداً، وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه، فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها، لا سيما إن كان

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٤.

(٢) وأنظر أيضاً أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٩٢ - ٩٣.

أميراً أو كبيراً، وإعطاؤه عندهم أعظم شأناً وأدل على الكرامة من إعطاء الفضة والذهب».

«وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفلفل، وهو شبه جوز الطيب، فيكسر حتى يصير أطرافاً صغاراً، ويجعله، ويجعله الإنسان في فمه، ويعلكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئاً من النورة ويمضغها مع الفلفل. وخاصيته أنه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم، ويهضم الطعام، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرح آكله، ويعين على الجماع، ويجعله الإنسان عند رأسه ليلاً فإذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة، ولقد ذكر لي أن جواري السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره».

أما النارجيل فيقول عنه ابن بطوطة: «هو جوز الهند، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأناً وأعجبها أمراً، وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما، إلا أن هذه تثمر ثمراً وتلك تثمر جوزاً، وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيها شبه العينين والفم، وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء، وعليها ليف شبه الشعر،

وهم يصنعون به حبالاً يخيطون بها المراكب عوضاً عن مسامير الحديد، ويصنعون منه الحبال للمراكب »[1].

ونستطيع أن نستخلص من حديث ابن بطوطة السابق طريقة صناعة المراكب في الخليج، فالمعروف أن هذه المراكب كانت تخاط بالحبال المصنوعة من ألياف جوز الهند، ولا تدق بها المسامير، وقد أشار إلى هذه الحقيقة أيضاً الرحالة البندقي المعاصر ماركوبولو[2] بقوله: « ترجع عيوبها - أي عيوب سفن الخليج - إلى عدم استخدام المسامير في بنائها وشدة صلابة الخشب وتعرضه للانشقاق والتصدع كالفخار سواء بسواء ». ويستطرد ماركوبولو في وصف كيفية صناعة هذه السفن وخياطتها بالحبال فيقول: « وعندما يحاول النجار دق مسمار إذا هو يرتد ثانياً وكثيراً ما ينكسر، ومن ثم فإن الألواح تثقب بكل عناية ممكنة بمثقاب حديدي قرب حوافيها وتدق فيها دبابيس أو أوتاد خشبية، وبهذه الطريقة تثبت

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٥.

(٢) رحلات ماركوبولو، ص ٥٨.

الألواح، وبعد هذا تربط الألواح معاً أو بمعنى أدق تخاط معاً بنوع من الحبل المفتول يؤخذ من ليف جوز الهند ».

وقد تعددت الأسباب التي أدت إلى عدم استخدام المسامير في سفن الخليج والاستعاضة عنها بالخياطة بالحبال، فبالإضافة إلى ما ذكره ماركوبولو من شدة صلابة الخشب وتعرضه للانشقاق والتصدع هناك آراء تقول إن الخوف من أن يأكل ماء البحر المسامير الحديدية هو الذي دفعهم إلى ذلك، وبالإضافة إلى ذلك نادت بعض الآراء بأن خوف الملاحين من جبال المغناطيس الموجودة أسفل المحيط الهندي هو الذي أدى إلى ذلك، في حين اكتفت بعض الآراء الأخرى بالقول إن خياطة السفن بالحبال كانت طريقة قديمة اتبعت منذ القدم وسار عليها الخلف بعد السلف[1].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، جـ ١ ص١٤٧ - ١٤٨، شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٧٣. القزويني: عجائب المخلوقات. آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٤٢٠ - ٤٢٢، Miles: op. cit, p 373.

ونعود مرة أخرى إلى النارجيل - جوز الهند - وفوائده المتعددة، فبالإضافة إلى إفادة أهل ظفار ومنطقة الخليج من أليافه واستخدامها في صناعة السفن يشرح لنا ابن بطوطة فوائده المتعددة بقوله: «ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن وإسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه، وأما الإعانة على الباءة ففعله فيها عجيب».

وبالإضافة إلى ما سبق فإن أهل ظفار كانوا يصنعون من جوز الهند العسل والحليب والزيت، وقد شرح ابن بطوطة طريقة صناعة كل واحدة بقوله[1]: «أما كيفية صناعة العسل منه فإن خدام النخل منه، ويسمون الغازانية، يصعدون إلى النخلة غدواً وعشياً، إذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل، وهم يسمونه الأطواق، فيقطعون العذق[2] الذي يخرج منه الثمر، ويتركون منه مقدار إصبعين، ويربطون عليه

---

(١) تحفة النظار، ص٢٥٦.

(٢) العذق هو كل غصن له شعب والجمع أعذاق.
(راجع: المعجم الوجيز: ص٤١١).

قدراً صغيرة، فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العذق، فإذا ربطها غدوة صعد إليها عشياً معه قدحان من قشر الجوز المذكور، أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين، ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر، وينجر[1] من العذق قليلاً، ويربط عليه القدر ثانية، ثم يفعل غدوة كفعله عشياً، فإذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب، إذا صنع منه الرب، فيصير عسلاً عظيم النفع طيباً فيشتريه تجار الهند واليمن والصين، ويحملونه إلى بلادهم ويصنعون منه" الحلواء ».

« وأما كيفية صنع الحليب منه - أي من جوز الهند - فإن بكل دار شبه الكرسي تجلس فوقه المرأة، ويكون بيدها عصا في أحد طرفيها حديدة مشرفة. فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ويجرشون ما في بطن الجوزة، وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء ثم يمرس

---

(١) النجر هو نحت الخشب (المعجم الوجيز: ص٦٠٣).

ذلك الجريش بالماء فيصير كلون الحليب بياضاً، ويكون طعمه كطعم الحليب، ويأتدم به الناس».

«وأما كيفية صنع الزيت، فإنهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره، فيزيلون قشره ويقطعونه قطعاً، ويجعل في الشمس، فإذا ذبل طبخوه في القدور، واستخرجوا زيته، وبه يستصبحون، ويأتدمون به، ويجعله الناس في شعورهم، وهو عظيم النفع».

وبالنسبة لأسواق ظفار فلم يكن بها سوى سوق واحد يقع خارج المدينة بربض يعرف بالجرجاء، وقد امتلأ هذا السوق بالثمار والسمك، وقد زار ابن بطوطة هذا السوق ووصفه بالقذارة والرائحة الكريهة[1]. ومن الأمور التي لفتت نظر ابن بطوطة أن معظم الباعة داخل السوق من الخدم خاصة الجواري «اللائي يرتدين السواد»[2].

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥١.

وفي ختام حديثنا عن الحالة الاقتصادية بظفار تجب الإشارة إلى أن ظفار ضربت عملة من النحاس والقصدير وقصرتها على التعامل في الأسواق المحلية فقط، أما المعاملات الخارجية فربما كان وفق ما ساد في ذلك الحين من التعامل بمقتضى أوراق مكتوبة تشبه الحوالات أو الشيكات وهو ما أطلق عليه اسم السفاتج ومفردها سفتجة وهي كلمة فارسية معناها ورقة مالية أو خطاب ضمان(١).

الحياة الاجتماعية بظفار

ويتضح لنا مما لمسه ابن بطوطة وشاهده بظفار أنه يغلب على أهلها الوئام والوفاق وتسودهم علاقات

---

(١) جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية، ص١٦٣، والمعروف أنه ساد عند المسلمين نظام التعامل بالأوراق المالية أو الشيكات وذلك لضمان التنقل بها من مكان إلى آخر. وعن نظام المعاملة عند المسلمين راجع: سعيد عاشور: المدينة الإسلامية، ص١٢٧، خولة الدجيلي: بيت المال، ص١٦٧ - ١٦٩، نعيم زكي: طرق التجارة الدولية، ص٣٥٠، آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢ ص٣٧٢ - ٣٧٣. وعن اللفظ «سفتجة» راجع: المعجم الوجيز ص٣١٢.

اجتماعية جيدة، كما أنهم يتمتعون بأخلاق حسنة، وقد مدحهم ابن بطوطة بقوله: «وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة».

ومن ناحية أخرى كان اهتمام أهل ظفار بالغرباء الوافدين على بلدهم اهتماماً زائداً. وقد تأثر ابن بطوطة بالحفاوة البالغة التي استقبله بها قاضي ظفار والمعاملة الطيبة التي عامله بها، ووصفها بقوله: «أضافني قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدي، وكان يتولى خدمتي، وغسل يدي بنفسه، ولا يكل ذلك إلى غيره»[1].

والواقع أن هذا المسلك الذي اتبعه أهل ظفار تجاه الغرباء يعبر بصدق عما ساد ببلدهم من حياة دينية واجتماعية، واقتصادية، فالمعروف أن أهل ظفار اشتهروا بتدينهم وتقواهم وتطبيقهم لتعاليم الإسلام، والمعروف أيضاً أن الشرع الإسلامي جعل لابن السبيل - الغريب - نصيباً من أموال الصدقات[2].

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٢٥٣.

(٢) ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ سورة التوبة؛ آية: ٥٩.

كذلك فإن أهل ظفار احترموا العلماء احتراماً كبيراً وقد اعتبروا ابن بطوطة من بين هؤلاء العلماء، ومن ناحية أخرى أهتم أهل ظفار بالتجار وذلك لاعتمادهم في الدرجة الأولى على التجارة كمورد أساسي في اقتصادهم، وقد استلزم هذا ضرورة الترحيب الدائم بالتجار وسائر الغرباء، وقد سبق لنا الإشارة إلى الكيفية التي استقبل بها أهل ظفار سفن التجار ومدى الترحيب والكرم الذي بذلوه لاكتساب رضاهم ومحبتهم، وهذا الأمر هو ما تقوم به كثير من البلدان في العصر الحديث خاصة تلك التي تعتمد في اقتصادها على السياحة، حيث تبذل قصارى جهدها في العمل على راحة الوافدين عليها أو بتعبير ابن بطوطة «الغرباء».

وتحدث ابن بطوطة عن طعام أهل ظفار، فأشار إلى أنهم يأكلون السمك - السردين - والأرز بالإضافة إلى الذرة والعلس أي القمح[1].

---

(١) من الجدير بالذكر أن ابن حوقل وهو من جغرافيي القرن الرابع الهجري أشار عكس ذلك فقال عن أهل ظفار أنهم «لا يعرفون الخبز ولا يأكلونه». أنظر: صورة الأرض ص ٣٨.

أمـا ملابسهم فكانـت الملابس القطنيـة، وهم «يشدون الفوط في أوساطهم عوض السروال، وأكثرهم يشد فوطه في وسطه، ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر»[1]. أما النساء خاصة الخدم فهـن «يلبسن السواد». وبالنسبة لغطاء الرأس أشار ابن بطوطـة إلى أن «أكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة، لا يجعلون عليها العمائم». وبصفة عامة يغلب على أهل ظفار النظافة والطهارة حيث «يغتسلون مرات في اليوم».

الحياة الدينية بظفار

يغلب على أهل ظفار التدين والصلاح، فمدينة ظفار «كثيرة المساجد، ولهم في كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال»، وهم مواظبون على تأدية

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٢.

وقـد أشار المقدسي إلى أن معظم أهل الخليج يرتدون الإزار «والرسوم في هذا الإقليم ليس الوزر، والأزر بلا قميص إلا القليل». راجع: أحسن التقاسيم، ص ٩٩.

صلاة الصبح والعصر جماعة بالمسجد، فضلاً عن صلاة الجمعة.

وقد وصف ابن بطوطة بعض عوائد أهل ظفار الدينية خاصة تصافحهم في المسجد فيقول: «ومن عوائدهم الحسنة التصافح في المسجد إثر صلاة الصبح والعصر، يستند أهل الصف الأول إلى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم، وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون أجمعون»[1].

كذلك أشار ابن بطوطة إلى أنه «في كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت يصلي عليها صاحب البيت».

بعض معتقدات أهل ظفار

لفت نظر ابن بطوطة ما كان سائداً بظفار من بعض المعتقدات التي سادت كل طبقات المجتمع سواء كان الرجل العادي أو السلطان. من ذلك إجلالهم

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٢.

لزاوية[1] الشيخ صالح العابد أبي محمد بن أبي بكر بن عيسى أحد أبناء ظفار. وقد تحدث ابن بطوطة عن هذه الزاوية كثيراً بقوله: «وهذه الزاوية معظمة عندهم - أي عند أهل ظفار - يأتون إليها غدواً وعشياً، ويستجيرون بها. فإذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه».

وكما هي عادة الرحالة يدفعه حب المعرفة والاستطلاع والرغبة في التحقق عما يسمعه، وأن يعاين بنفسه الأشياء ويطالعها، فإن ابن بطوطة سعى إلى زيارة هذه الزاوية لإشفاء غليله كرحالة من جهة، ومن جهة أخرى فإن شخصية ابن بطوطة نفسها كانت تدفعه لزيارة الزهاد العباد[2]، من أجل كل

---

(١) الزاوية مفرد والجمع زوايا وهو اسم اطلق قديماً على كل مسجد صغير، فيه أحد الرجال المعروفين بالتقوى والزهد، ويقوم بوعظ وإرشاد من يتردد على زاويته من الناس. (راجع: سعيد عاشور: العصر المماليكي ص٤٢٢).

(٢) يبدو ميل ابن بطوطة إلى زيارة الزهاد وأهل الصلاح من خلال حديثه أثناء رحلته الطويلة، وأشار في مرات عديدة إلى أنه كثيراً ما طلب من هؤلاء الزهاد الدعاء له، مثال ذلك ما حدث في العراق عند زيارته لأحد الأولياء فطلب منه أن يدعو له، فدعا له =

ذلك فقد قام ابن بطوطة بزيارة هذه الزاوية وترك لنا وصفاً عما شاهده بها بقوله: «رأيت بها شخصاً ذكر لي أن له بها عدة سنين مستجيراً لم يتعرض له السلطان. وفي الأيام التي كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح»[1].

ثم يروي ابن بطوطة حادثة حدثت له داخل هذه الزاوية توضح الحد الذي وصلت إليه معتقدات أهل ظفار، «أتيت هذه الزاوية فبت بها في ضيافة الشيخين أبي العباس أحمد وأبي عبد الله محمد ابني الشيخ أبي بكر المذكور، وشاهدت لهما فضلاً عظيماً، ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذي غسلنا به فشرب منه، وبعث الخادم بباقيه إلى أهله وأولاده فشربوه، وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم»[2]!!.

= بأن يحقق الله مراده، ويشير ابن بطوطة إلى أن الله استجاب لهذا الدعاء وحقق مراده وهو «السياحة في الأرض». وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى اعتقاد ابن بطوطة هو الآخر في بركة هؤلاء الزهاد.

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٢٥٣.

(٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٥٣.

وإلى جانب تلك الزاوية اعتقد أهل ظفار في تربة سلف سلطان ظفار الملك المغيث وتبركوا بها وكانت «معظمة عندهم، ويستجير بها من طلب حاجة»، ويبدو أن ابن بطوطة اعتقد هو الآخر في صحة تلك المعتقدات الخاطئة فعلق على ذلك بقوله «ويستجير بها من طلب حاجة فتقضى له»!!. وكثيراً ما كان الجند يستجيرون بهذه التربة عندما تتأخر أرزاقهم ويظلون كذلك حتى تعطى لهم أرزاقهم.

كذلك أشار ابن بطوطة إلى أنه شاهد على بعد مسيرة نصف يوم من ظفار، زاوية ومسجد على ساحل البحر بالأحقاف[1]، ويوجد داخل الزاوية قبر مكتوب عليه: هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل

---

(١) الأحقاف جمع والمفرد الحقف وهو في اللغة ما استطال واعوج من الرمل (المعجم الوجيز، ص١٦٣)، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي وادٍ بين عمان وأرض مُهره، قال ابن اسحق الأحقاف رمل فيما بين عمان إلى حضرموت، وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن: راجع: ابن حوقل: صورة الأرض ص٣٨، ياقوت: معجم البلـــــدان، جـ١ ص١١٥ - ١١٦.

الصلاة والسلام[1]. وقد ذكر صاحب كتاب صفة جزيرة العرب[2] «أن قبره في الكثيب الأحمر ثم منه في كهف مشرف في أسفل وادي الأحقاف»[3].

★ ★ ★

وقبل أن نترك ظفار لنتوجه مع ابن بطوطة إلى غيرها من مدن وموانى الخليج، نشير إلى تلك المقارنة الطريفة التي عقدها ابن بطوطة بين ما كان سائداً في ظفار من عادات وتقاليد وبين ما كان معروفاً بالمغرب، وهذه المقارنة على النحو التالي:

---

(١) جاء في التنزيل العزيز: ﴿واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ سورة الأحقاف آية ٢١. والمقصود بأخي عاد هو هود عليه السلام، والأحقاف كانت منازل عاد الأولى باليمن في شمال حضرموت. راجع: صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٦٤١. وأنظر أيضاً: اليعقوبي: تاريخه جـ ١، ص ٢٢، المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٦٧.

(٢) الهمذاني: ص ١٧٠.

(٣) وقد علق الأستاذ محمد بن علي الأكوع محقق كتاب صفة الجزيرة على ذلك بقوله: «قبر النبي هود عليه السلام لا يزال معروفاً». راجع ص ١٧٠ حاشية رقم ٢.

أولاً: عادة كشف الرأس وعدم اتخاذ غطاء للرأس، وقد أشار ابن بطوطة إلى أن ظفار «أكثر «أهلها رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم »[1]، والمعروف أن قسماً من سكان المغرب لم يتخذوا غطاءً للرأس. ولتوضيح ذلك نشير إلى أن سكان المغرب انقسموا إلى قسمين: البربر البتر والبربر البرانس، وتعددت التفسيرات الخاصة بتلك التسمية وذلك التقسيم، وقد أشار وليام مارسيه إلى أن سبب تسمية البرانس والبتر يعود إلى نوع الثياب، فالذين كانوا يلبسون غطاء رأس طويل اطلق عليهم اسم البرانس وهو جمع برنس، أما الذين كانوا دون غطاء رأس اطلق عليهم اسم البتر وهو جمع أبتر بمعنى الناقص أو المقطوع[2].

ثانياً: عادة ما كان يوجدَ في كل دار من دور ظفار من تعليق سجادة خوص يصلي عليها صاحب البيت[3]، وهو نفس الشيء الموجود بالمغرب.

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٢٥٢.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، جـ١ ص٩٠ - ٩١.

(٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٥٢.

ثالثاً: عادة أكل أهل ظفار للذرة[1]، وهي تشبه ما كان سائداً بين سكان المغرب.

رابعاً: عادة تسمية الجواري بنفس الأسماء المنتشرة بالمغرب، وفي ذلك يشير ابن بطوطة: «ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة - ظفار - أشبه الناس بأهل المغرب في شئونهم. نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم، عيسى بن علي، كبير القدر، كريم النفس، فكان له جوار مسميات بأسماء خدام المغرب، إحداهن اسمها بخيتة والأخرى زاد المال، ولم أسمع هذه الأسماء في بلد سواها»[2].

ويخلص ابن بطوطة من هذه المقارنة بإعلان رأي في غاية الأهمية وهو «أن هذا التشابه مما يقوي القول بأن صنهاجة وسواها من قبائل المغرب أصلهم من حمير»[3].

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٢٥٣.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥٢.

(٣) المصدر السابق، ص٢٥٣.

وعن قبائل صنهاجة أنظر: ابن خلدون: العبر، جـ ١ ص١٥٢ وما بعدها.

ميناء حاسك

ثم غادر ابن بطوطة ظفار على ظهر مركب صغير لرجل يعرف باسم علي بن ادريس المصيري من أهل جزيرة مصيره[1]، ميمناً وجهه شطر عُمان. ومن الجدير بالذكر أن هذا المركب كان يحمل مجموعة من الركاب كل له وجهته وهويته، فمنهم التجار خاصة العمانيين، ومنهم من يمم وجهه إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحاج مثل الحج خضر الذي تحدث عنه ابن بطوطة وهو من أهل الهند، ومنهم الرحالة المتجول مثل ابن بطوطة نفسه.

وفي الطريق إلى عمان هبط المركب في مرسى حاسك[2]. وقد وصف ابن بطوطة حياة أهل حاسك

---

(١) مصيرة: جزيرة عظيمة في بحر العرب بها عدة قرى راجع: ياقوت: معجم البلدان جـ ٥ ص ١٤٤.

(٢) حاسك: قرية شرقي ظفار وبها قبر نبي من الأنبياء من أولاد النبي هود عليه السلام. راجع: الهمذاني: صفة جزيرة العرب، ص ٩١ حاشية رقم ٤.

وصفاً دقيقاً مختصراً، فأشار إلى أن أهلها من العرب، ويبدو أن ابن بطوطة تعمد ذكر ذلك لأنه لم يجد بها أحد من الجاليات الهندية التي كانت تعج بها منطقة الخليج وذلك بحكم العلاقات التجارية التي ربطت بينها وبين الهند. ومعنى ذلك أن أهل حاسك لم يعملوا بالتجارة وإنما عملوا في صيد السمك، وقد أكد ابن بطوطة هذه الحقيقة بقوله: «وإن معيشة أهل ذلك المرسى من صيد السمك»[1].

وقد اعتمد أهل حاسك على السمك في كل نواحي حياتهم، فقاموا ببناء مساكنهم من عظام السمك[2]، وغطوا سقوفها بجلود الجمال. واعتمدوا في غذائهم على نوع معين من السمك أطلق عليه ابن بطوطة اسم «اللخم» وهو شبيه كلب البحر. وقد

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٨.

(٢) انتشرت عادة استخدام عظام السمك خاصة الحيتان في بناء منازل أهل الخليج، وقد أشار أبو زيد السيرافي إلى أنه «بقرية سيراف بيوتاً لطافاً سقوفها من ضلوع هذا الحوت» راجع: أنور عبد العليم: ابن ماجد، ص ١٠٤.

وصف ابن بطوطة طريقة طبخ هذا السمك بقوله: « يشرح ويقدد ويقتات به ».

كذلك اشتهرت حاسك بإنتاج الكُندر[١]، وهو شجر وصفه ابن بطوطة بقوله: « وهو رقيق الورق، وإذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن، ثم عاد صمغاً، وذلك الصمغ هو اللبان، وهو كثير جداً هنالك »[٢] وقد أشار ابن البيطار[٣] إلى شجر الكُندر هذا بقوله: « وهي شجرة مشوكة لا تسمو أكثر من ذراعين، ولا تنبت الا بالجبال ليس في السهل منها شيء، ولها ورق مثل ورق الآس وثمره له مرارة في الفم، وعلكه الذي يمضغ ويسمى الكُندر ».

---

(١) الكندر بالفارسية ومعناه بالعربية اللبان.

(٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٢٥٨.

(٣) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، جـ ٤ ص ٨٣. وانظر أيضاً: القزويني: آثار البلاد، ص ٥٥.

رباط جبل لمعان

واستكمل ابن بطوطة رحلته فغادر ميناء حاسك مواصلاً سيره الى عُمان، حيث رست السفينة بجبل لمعان[١]، الذي قال عنه ابن بطوطة «إنه في وسط البحر»، وبأعلى هذا الجبل «رابطة[٢] مبنية بالحجارة، وسقفها من عظام السمك، وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر»[٣].

وما أن رست المركب التي يقلها ابن بطوطة بجبل لمعان، حتى سارع ابن بطوطة بالصعود إلى أعلى الجبل ليرى ما بداخل الرباط. ويروي ابن بطوطة أنه رأى

---

(١) لم أهتدِ إلى تحقيق مكان هذا الجبل، ويبدو من وصف ابن بطوطة أنه يمثل جزيرة في وسط البحر.

(٢) الرابطة أو الرباط دار يسكنها أهل طريق الله، وهو بيت الصوفية ومنزلهم، ولكل قوم دار، والرباط دارهم، وقد شابهوا أهل الصفة في ذلك. أنظر المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ ٢ ص ٤٢٧.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٨.

شيخاً نائماً استيقظ على صوت إلقاء السلام عليه وأشار برد التحية رافضاً التحدث معهم واكتفى بتحريك رأسه للرد على استفسارات ابن بطوطة ومن صعد معه إلى الرباط. كما رفض أخذ أية أطعمة قدموها له، وكانت ثيابه رثة للغاية، ويرتدي قلنسوة لبد، في حين لم يكن معه دركوة ولا إبريق ولا عكاز ولا نعل. ويبدو أن أهل المركب الذين كانوا دائبي خوض عباب البحر والمرور دائماً على جبل لمعان قد أكدوا أنهم لم يروا هذا الرجل من قبل، ولكنهم لم يشكّوا في أمره واكتفوا بطلب الدعاء منه.

وقد استراح ابن بطوطة ومن معه بالمركب يومهم هذا بساحل جبل لمعان حيث صلى بهم الشيخ المذكور صلاة العصر والمغرب، واستمر في صلاته إلى العشاء الآخرة، ويصفه ابن بطوطة أنه « كان حسن الصوت بالقراءة، مجيداً لها ».

وبعد أن انقضت صلاة العشاء أومأ لهم بالإنصراف فانصرف الجميع، وعادوا الى المركب في حين أراد ابن بطوطة أن يعود الى الشيخ ليقف على

حقيقة أمره[1]، لكنه ما إن اقترب منه حتى امتلأ خوفاً ورهبة، فعاد مسرعاً إلى بقية أصحابه بالمركب. ولم تلبث أن أقلعت المركب بعد أن استراحت هذا اليوم بجبل لمعان.

---

(١) انتشرت ظاهرة ملازمة بعض الزهاد للصمت، ومن أمثلة ذلك ملازمة السيد أحمد البدوي- في مصر- للصمت فترة طويلة فكان لا يتكلم إلا بالإشارة ثم اعتزل الناس جميعاً. راجع السيوطي: حسن المحاضرة، حـ ١ ص ٥٢٢.

جزيرة الطير

واصل ابن بطوطة رحلته إلى أن وصل الى جزيرة الطير، بعد أن قضى في البحر يومين منذ خروجه من جبل لمعان. ويصف ابن بطوطة هذه الجزيرة بأنها ليست ذات عمارة، وقد كثر بها نوع من الطيور يشبه الشقاشق[١] - وفق تشبيه ابن بطوطة -.

وكانت معيشة أهل المركب أثناء وجودهم في هذه الجزيرة على تلك الطيور ومنتجاتها من البيض، وقد تناولوها أمام ابن بطوطة كما قدموها له، غير أنه رفض أن يأكل منها[٢].

---

(١) الشقاشق نوع من الطيور شبيه بالحمام.

(٢) عن أنواع الطيور البحرية الموجودة بجزر الخليج وسواحله راجع: نجيب عبد الله الشامسي: الإمارات في سفينة الماضي، ص ٩٣-٩٥ والمعروف أن أهالي منطقة الخليج إلى وقت قريب كانوا يقومون باصطياد هذه الطيور وجمع بيضها وأكلها.

الحياة بالمركب

ولم ينس ابن بطوطة أن يصف لنا الحياة داخل المركب التي كان يقلها متجهاً صوب عمان، ليعطي لنا صورة واضحة عن حياة أهل الخليج وهم بالبحر، والمعروف أن حياة أهل الخليج دارت أساساً حول البحر وما به من خيرات.

وأول ما أشار إليه ابن بطوطة هو ما يعتمد عليه أهل المركب من غذاء، حيث كانوا يعيشون على السمك الذي يقومون باصطياده من البحر، وقد أطلق على هذا السمك اسم « شيرماهي »، وهي لفظة فارسية تعني أسد السمك[١]. أما طريقة طبخه فكانت عن طريق تقطيعه وشيّه، ويأكلون معه التمر.

ويبدو أن ابن بطوطة وهو الغريب عن عادات

---

(١) شير بالفارسية تعني أسد، وماهي تعني سمك، أي أسد السمك، وقد أشار ابن بطوطة إلى أن هذا النوع من السمك يشبه سمك الحوت المعروف في المغرب باسم « تازرت ».

وتقاليد أهل الخليج، والذي لم يتناول من قبل هذه المأكولات، كان قد استصحب معه من ظفار خبزاً وكعكاً ليتناوله أثناء رحلته بالبحر، لكنه اضطر إلى أكل سمك الشيرماهي بعد نفاد ما معه من خبزٍ وكعكٍ.

بالإضافة إلى السمك، فقد كان أهل المركب يتناولون طعاماً آخر يطبخونه بالمركب، فقد أشار ابن بطوطة إلى أنهم تناولوا في أحد الأيام طعاماً صنعه بعض تجار عُمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن وصب عليها السيلان وهو عسل التمر. ويبدو أن ابن بطوطة لم يسبق أن أكل هذا الطعام من قبل كما أنه لم يأكله في منطقة أخرى من المناطق التي زارها، وقد أكد هذه الحقيقة بقوله: «لم آكله قبله ولا بعده»، مما يشير الى أن هذا الطعام كان من الوجبات السريعة التي تعد في البحر فقط.

وبالإضافة إلى ذلك اعتمد أهل الخليج أثناء وجودهم بالبحر على الطيور الكثيرة المتواجدة في مختلف الجزر المنتشرة بالخليج وعلى منتجاتها من

البيض، وقد سبق وأن أشار ابن بطوطة إلى قيام أهل المركب الذي كان يقله باصطياد الطيور وجمع بيضها من جزيرة الطير وأكلوها.

وكذلك أشار ابن بطوطة إلى ظاهرة هامة وهي أن الجميع داخل المركب سواسية، لا يفضل أحدهم على الآخر حتى صاحب المركب، وقد لمس ابن بطوطة هذه الظاهرة عند توزيع الطعام، وأشار اليها بقوله: «ويعطون كل من في المركب قطعه لا يفضلون أحداً على أحد ولا صاحب المركب، ولا سواه»[1].

ولم تخل حياة أهل الخليج في البحر من متاعب وصعاب أهمها ما كانوا يواجهونه من أخطار ناجمة عن الرياح العاتية والعواصف الشديدة[2]، وقد ترك لنا ابن بطوطة وصفاً عما تعرضت له المركب التي كان

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٩.

(٢) عن اضطراب الملاحة في المحيط الهندي والخليج أنظر: ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤٦، المسعودي: مروج الذهب جـ ١ ص ١٤٧ - ١٤٨.

يستقلها من أخطار تلك العواصف التي استمرت عدة ساعات منذ الفجر ودامت إلى طلوع الشمس، وكادت تغرقهم، في حين غـرق بالفعل أحد المراكب المتقدم عليهم ولم ينج من ركابه سوى «رجل واحد خرج عوماً بعد جهد شديد»[1].

---

(١) من المعروف أنه كان يوجد عند مدخل الخليج مياه ضحلة كانت تتحطم عليها المراكب، مما دفع أهالي المنطقة إلى إقامة أبراج خشبية عليها على رؤوسها مشاعل تضاء في الليل لترشد المراكب. وقد أشار الى ذلك أبو زيد السيرافي. راجع: حسن صالح شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص ٤٣ - ٤٤.

جزيرة مصيرة

وبعد أن عَيَّد ابن بطوطة عيد الأضحى (عام ٧٣١ هـ) على ظهر المركب خلال رحلتهم من جزيرة الطير، وصل المركب أخيراً الى جزيرة مصيرة، وهي إحدى الجزر الكبيرة في بحر العرب[١]، ولم تختلف حياة أهل مصيرة عن حياة بقية أهالي الجزر الأخرى، فقد أشار ابن بطوطة إلى أنهم اعتمدوا على السمك في غذائهم مثلهم في ذلك مثل سائر أهل الجزر الأخرى.

ومن الجدير بالذكر أن أهل جزيرة مصيرة كانوا ملاحين مهرة، وكان معظمهم أصحاب المراكب الصغيرة العاملة في المحيط الهنَدي وبحر العرب والخليج، وقد أشار ابن بطوطة إلى أن صاحب المركب التي كان يستقلها من جزيرة مصيرة[٢].

(١) ياقوت: معجم البلدان، جـ ٥ ص ١٤٤.
(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٠.

مدينة قَلهاتُ

وواصل المركب إبحاره إلى أن رست على شاطىء مرسى كبير مطل على خليج عُمان يعرف باسم صور[1]، وما أن نزل ابن بطوطة بها حتى شاهد منها مدينة قلهات[2]، فظن أنها قريبة من صور ويمكن الوصول إليها عن طريق البر. ويذكر ابن بطوطة أنه كره صحبة الرفاق الذين صحبوه خلال رحلته البحرية من ظفار الى صور وذلك لما كانوا يتناولونه من طعام لم يألفه من قبل. غير أنه يمكننا أن نلمس

---

(١) صور بلد على ساحل عمان مقابل جعلان. راجع: تاريخ أهل عمان ص ١٢٧ حاشية (٢).

(٢) قلهات مدينة على ساحل خليج عمان، وقال عنها ياقوت الحموي: «إليها ترفأ أكثر سفن الهند، وهي الآن فرضة تلك البلاد، وأمثل أعمال عمان، عامرة آهله، وليست بالقديمة من العمارة، ولا أظنها عمرت إلا بعد الخمسمائة، وأهلها كلهم خوارج أباضية، الى هذه الغاية يتظاهرون بذلك ولا يخفون». راجع: معجم البلدان: جـ ٤ ص ٣٣٣. وأنظر أيضاً: شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ٢١٨، تاريخ أهل عمان: ص ٣٦ حاشية ٧.

سبباً آخر دفع ابن بطوطة إلى ترك المركب والتوجه براً إلى قلهات رغم ما يعتري السير براً من مشاق ومصاعب، وهذا السبب يعود الى رغبة ابن بطوطة السائح المتجول في التعرف على أكبر قدر ممكن مما يسود منطقة الخليج من مظاهر الحياة المختلفة، وذلك عن طريق التجوال بحراً وبراً.

وقد واجه ابن بطوطة عدة صعاب خلال رحلته البرية إلى قلهات وصفها لنا موضحاً بعض مظاهر الحياة داخل البر، وأهم ما أشار إليه ابن بطوطة، هو استئجاره لأحد الأشخاص ليكون دليلاً له إلى قلهات، وقد أشار ابن بطوطة إلى أن هذا الدليل حاول الغدر به أكثر من مرة، أما محاولته الأولى فكانت الهرب بثياب ابن بطوطة، والثانية أراد أن يوغر به في طرق وعرة حتى يصعب عليه الجد في السير واللحاق به إذا أراد الهرب بما يحمله من أمتعة. وقد أدى هذا إلى عدم اطمئنان ابن بطوطة من نوايا الدليل، ويتضح هذا عندما قضى ابن بطوطة ليلته مستيقظاً خوفاً من غدر الدليل فقد أشار إلى ذلك

بقوله: «وبقيت ساهراً فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته أني مستيقظ»[1].

كذلك يصف ابن بطوطة الطريق من صور إلى قلهات بأنها طريق موحشة فهي عبارة عن صحراء جدباء لا زرع فيها ولا ماء، بالإضافة إلى ما يصحب السير بها ليلاً من مخاطر اللصوص وقطاع الطرق. لكنه في نفس الوقت يظهر مدى إعجابه بأهل هذه المنطقة من البدو الفرسان الذين يتمتعون بالشجاعة والكرم، وقد لمس ابن بطوطة بنفسه مدى كرم أهل المنطقة فبعد أن أعياه الطريق وبلغ بهم العطش مبلغاً عظيماً «بعث الله لنا فارساً في جماعة من أصحابه. وبيد أحدهم ركوة ماء، فسقاني وسقى صاحبي»[2]. وعلى هذا النحو يجمع لنا ابن بطوطة الكثير من متناقضات الحياة بالصحراء، فالخوف من اللصوص وقطاع الطرق وفي نفس الوقت شجاعة وشهامة البدو القاطنين بها.

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦١.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٠.

وبعد جهد جهيد، وتعب شديد، وصل ابن بطوطة إلى مدينة قلهات، غير أن الموكل بالباب رفض السماح له بالدخول إلى المدينة وقال له: «لا بد لك أن تذهب معي إلى أمير المدينة ليعرف قضيتك ومن أين قدمت؟». وفي هذا إشارة إلى ما كان سائداً بقلهات من نظام إداري دقيق وإشراف تام على منافذ البلد ومداخلها، حيث يتم تتبع أحوال الوافدين عليها وعرضهم على المسئولين عن المدينة قبل السماح لهم بالتجول داخلها والتحقق من أهدافهم، وذلك حتى يأمنوا شر الأعداء.

وبالفعل ذهب ابن بطوطة لمقابلة أمير المدينة، أو واليها[1]، الذي قام بسؤاله عن أحواله وعن سبب قدومه إلى قلهات، وما أن علم حاكم قلهات بحقيقة أمر ابن بطوطة حتى أحسن إليه وقربه إليه وأنزله بداره عدة أيام حتى استراح من مشاق سفره، وفي ذلك يقول ابن بطوطة: «وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لي فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام». ويبدو

---

(١) كانت قلهات خاضعة في ذلك الحين لحكم سلطان هرمز، قطب الدين تمهتن بن طوران شاه.

أن والي المدينة قد اهتم بابن بطوطة اهتماماً كبيراً، مما دعا ابن بطوطة إلى وصفه بقوله: «فرأيته فاضلاً حسن الخلق»[1].

الحالة الاقتصادية بقلهات

اعتمد أهل قلهات في اقتصادهم على التجارة، وذلك كنتيجة طبيعية لوقوع مدينتهم على ساحل البحر، ومثلهم مثل أهل ظفار كانوا يفرحون كثيراً عند وصول أحد المراكب إلى مدينتهم، وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك بصراحة بقوله: «إذا وصل إليهم مركب فرحوا به أشد الفرح».

أما أهم السلع التي كانوا يجلبونها فكانت الأرز، الذي يجلب إليهم من الهند وعليه كان الاعتماد الأول في الغذاء.

واهتم أهل قلهات بأسواقهم اهتماماً كبيراً، خاصة ما يتعلق منها بالنظافة، وقد أعجب ابن بطوطة

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦١.

بحسن ونظافة أسواق قلهات، ووصفها بقوله: «وهي حسنة الأسواق».

الحياة الاجتماعية والدينية بقلهات

أما من الناحية الاجتماعية بقلهات، فأهم ما يلاحظ وجود تقارب في مختلف نواحي الحياة في منطقة الخليج كلها، فمن حيث المأكل نجده مشابهاً لما عرفناه في ظفار وفي غيرها من الجزر المنتشرة في بحر العرب. وهو اعتمادهم على الأرز والسمك مع اختلاف قليل في طريقة طبخه، وقد روى ابن بطوطة «أكلت بهذه المدينة - أي قلهات - سمكاً لم آكل مثله في إقليم من الأقاليم، وكنت أفضله على جميع اللحوم، فلا آكل سواه». أما طريقة طبخه فقد أشار إليها ابن بطوطة بقوله: «وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز ويأكلونه».

أما لهجة أهل قلهات فقد أشار ابن بطوطة أنها ليست بالعربية الفصحى على الرغم «من أنهم عرب»، وربما يعود السر في ذلك إلى اشتغالهم بالتجارة واختلاط لغتهم باللغات الأخرى، وهو ما

نعهده دائماً في المدن دون البادية. وقد لاحظ ابن بطوطة أنهم يصلون أية كلمة يقولونها بكلمة «لا»، مثل: تأكل لا، تمشي لا، وهكذا[1].

وأكثر أهل قلهات خوارج لكنهم غير قادرين على إظهار مذهبهم وذلك لأنهم خاضعون لحكم السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز وهو من أهل السنة.

ومن جهة أخرى اهتم أهل قلهات بإنشاء المساجد. وزخرفتها، وقد روى ابن بطوطة[2] أن مسجد قلهات من أحسن المساجد حيث كانت «حيطانه بالقاشاني، وهو شبه الزليج» وهو مقام على ربوة عالية حيث يشرف على البحر والمبناء.

---

(١) تحفة النظار، ص ٢٦٢.

وقد أشار المقدسي وهو من جغرافيي القرن الرابع الهجري إلى تأثر أهل بعض مدن الخليج باللغات المجاورة خاصة الفارسية، مما أدى إلى اختلاط اللغة العربية بالفارسية. راجع أحسن التقاسيم ص ٤٩٦.

(٢) تحفة النظار، ص ٢٦١.

قرية طيبى

وقد شاهد ابن بطوطة بالقرب من قلهات قرية تسمى طيبى، وهي قرية كانت الزراعة هي السمة المميزة لها، وقد وصفها بقوله: «وهي من أجمل القرى وأبدعُها حسناً، ذات أنهار جارية، وأشجار فاخرة، وبساتين كثيرة».

وكانت طيبى تمد كل من قلهات وعمان وهرمز بالفواكه خاصة الموز الذي قال عنه ابن بطوطة إنه يعرف بالمرواري، والمرواري بالفارسية هو الجوهري (المروار = الجوهر)[1].

أما التمر فلم تكن طيبى تقوم بإنتاجه، وإنما كانت تستورده من عمان التي اشتهرت بإنتاجه على مر العصور.

---

(١) تحفة النظار، ص ٢٦٢.

الحياة في عُمان

واتجه ابن بطوطة إلى عمان[1] متخذاً الطريق البري كما سبق أن أشرنا، حيث وصل إلى العاصمة نزوا[2] قاعدة الحكم ومقر السلطان، بعد ستة أيام، وقد وصف ابن بطوطة نزوا بأنها تقع على سفح جبل تحف به البساتين والأنهار.

ويبدو أن الحياة بنزوا لم تختلف كثيراً في عصر

---

(١) سميت عمان نسبة إلى عمان بن لوط النبي عليه السلام. (راجع: شيخ الربوة: نخبة الدهر ص٢١٨).

(٢) تبدلت عاصمة عمان عبر الأزمان حسب الظروف السياسية، فمثلاً كانت عاصمتها في القرن الرابع الهجري مدينة صحار وذلك بعد أن استقل بحكمها رجل من بني سامة يعرف بمحمد بن القاسم السامي وخطب للخليفة العباسي المعتضد، مما دفع حكامها السابقين من الشراه إلى الاتجاه إلى نزوا والاستقرار بها، وقد أشار كل من ابن حوقل والإصطخري إلى أن طائفة الشراه مستقرة بنزوا «وبها إمامهم وبقية مالهم وجماعتهم».

أنظر: صورة الأرض ص٣٩، مسالك الممالك، ص٢٥، ٢٦، وأنظر كذلك شيخ الربوة: نخبة الدهر ص٢١٨.

ابن بطوطة عما كانت عليه من قبل. ويتضح ذلك من مقارنة حديث ابن بطوطة بأوصاف جغرافيي القرن الرابع الهجري لها فقد وصفها المقدسي[1] بقوله: «ونزوا في حد الجبال كبيرة، بنيانهم طين، والجامع وسط السوق.. شربهم من أنهار وآبار، قد التفت بها النخيل».

الأحوال السياسية بعمان

خضعت عمان زمن ابن بطوطة لحكم السلطان أبو محمد بن نبهان[2]، وهو عربي من قبيلة الأزد[3] بن الغوث. وعلى النقيض من حاكم ظفار الذي استتر عن

---

(١) أحسن التقاسيم، ص٩٣.

(٢) عن تاريخ حكم النباهنة بعمان راجع: تاريخ أهل عمان لمؤلف مجهول تحقيق د. سعيد عاشور، ص٩٥ - ١١٢. ويذكر بعض الكتاب أن بني نبهان مالوا إلى الاستبداد بالأمر وقهر الناس، وابتعدوا عن الشورى، لذلك فإن تاريخهم لم يحظ بالعناية من قبل المؤرخين العمانيين، راجع تاريخ أهل عمان حاشية ٣ ص٩٥.

(٣) تعتبر قبيلة الأزد من أشهر القبائل العربية، وهي تنسب إلى الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان من القحطانية، راجع: القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص٩١. وأنظر أيضاً: تاريخ اليعقوبي، جـ١ ص٢٠٢.

رعيته نجد أن حاكم عمان أبو محمد بن نبهان لم يضع على بابه لا حاجباً ولا وزيراً، ولم يمنع أحداً من الدخول عليه في أي وقت يشاء سواء أكان غريباً أو من أهل البلد، وكان مجلسه خارج باب داره.

وبطبيعة الحال قصد ابن بطوطة حاكم عمان الذي أكرمه إكراماً زائداً، وقد ظهر هذا واضحاً من المديح الذي كاله له حيث قال عنه: «ويكرم - أي أبو محمد ابن نبهان - الضيف على عادة العرب، ويعين على الضيافة، ويعطيه على قدره، وله أخلاق حسنة»[1].

وإذا كانت هذه هي صفات الحاكم فماذا نتوقع عن البلد وأهلها، فمما لا شك فيه أن يكونوا على نفس الصفة، فنجد ابن بطوطة يصفهم بقوله: «ولهم نجدة وشجاعة»، كما أنهم كرماء بطبعهم إذ يفضلون الأكل سوياً في صحن المسجد «ويأكل معهم الوارد والصادر».

وبهذه الكلمات المختصرة البسيطة يصف ابن

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٢٦٣.

بطوطة عمان سلطاناً وحكومة وشعباً، وهي صفات عربية أصيلة زادها الإسلام حسناً وبهاءً.

الحالة الاقتصادية بعمان

أما أحوال عمان الاقتصادية، فقد أوضح ابن بطوطة أنها كانت ذات ثراء اقتصادي، وقد اعتمد الاقتصاد في عمان زمن ابن بطوطة على ما تنتجه الأراضي العمانية من خيرات ومنتجات زراعية « فهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس »[1].

ومن الملاحظ أن ابن بطوطة لم يشر إلى قيام عمان بأي دور تجاري في تلك الفترة، وذلك على الرغم مما قامت به عمان من نشاط تجاري عبر عصور التاريخ، فالمعروف أن عمان منذ القدم كان لها دور كبير في ميدان التجارة خاصة مع الهند وبلدان الشرق الأقصى، وكان لقربها من سواحل الهند وامتداد شواطئها على المحيط الهندي والخليج العربي أثر كبير

---

(١) تحفة النظار، ص ٢٦٢.

في ازدياد نشاطها التجاري[1]. وكثيراً ما تحدثنا كتب الجغرافيا عن الرحلات البحرية التي قام بها التجار العمانيون وخوضهم عباب المحيط ووصولهم إلى الصين والهند، وكيف كانوا يجلبون معهم في رحلة العودة مختلف السلع والبضائع التي اشتهرت بها الهند والصين[2]. وخلال هذه الفترة لم تتأثر تجارة عمان بما كان يقوم به بعض قراصنة الهند من الإغارة على شواطىء عمان بقصد سلب ونهب ما بها من خيرات وبضائع[3].

غير أنه حدث وفي زمن ابن بطوطة نفسه أن توقف النشاط التجاري بعمان وذلك نتيجة التطورات

---

(١) راجع: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٦ ص٢١٥، وابن خلدون: العبر، جـ٤ ص٩٣، و Miles: op. cit, p. 355.

(٢) الإصطخري: المسالك والممالك، ص٢٧، والحميري: الروض المعطار ص٨٢.

ومن الجدير بالذكر أنه نتيجة ازدهار التجارة بعمان في تلك الفترة وكثرة تردد التجار عليها أنشأ بها الخانات الخاصة بهم.

(أنظر أبو عبيد البكري: الممالك والمسالك، القسم الخاص بجزيرة العرب ص٣٧).

(٣) راجع تاريخ أهل عمان ص٦٠ والحواشي.

السياسية التي شهدتها عمان وما قامت به جزيرة كيش من شن هجماتها على السفن التجارية مما أدى الى انقطاع التجارة عن عمان وعودة النشاط التجاري الى عدن. ويبدو أن الصراع بين كيش وهرمز والذي اشتد أواره منذ عام ٧٣٠ هـ وأثناء وجود ابن بطوطة نفسه في المنطقة كان له آثار سيئة على النشاط التجاري بعمان وكان عاملاً أساسياً في توقف تجارة عمان نهائياً خاصة بعد أن استطاعت هرمز تحقيق النصر على كيش وفرضت سيطرتها البحرية والتجارية عليها بالإضافة الى استيلائها على أجزاء من سواحل عمان، كل ذلك أدى إلى زيادة المخاطر على تجارة عمان وأدى في النهاية إلى توقفها(١).

ولا يعني ذلك أن عمان تدهورت اقتصادياً نتيجة توقف التجارة بها، وإنما على العكس من ذلك كانت ذات ازدهار اقتصادي، وساعدها في ذلك تنوع مصادرها الاقتصادية ووفرة انتاجها الزراعي.

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٤١، وجمال زكريا: الخليج العربي، ص ٧، وزيسلر: الحضارة العربية ص ١٣١، Heyd: op. cit, T. 1, p. 35.

والواقع أنه من قديم الزمن وعمان تعيش في سعة من العيش بسبب هذا العامل، وقد أكد هذه الحقيقة معظم الجغرافيين المسلمين، وهناك من الأمثلة العربية ما يؤكد ذلك «من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان»[1]. ومما يدل على وفرتها وكثرة مواردها ما أشار إليه المقدسي في قوله: «فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والأسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والخضار والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك»[2]. هذا بالإضافة إلى ما بها من إنتاج زراعي خاصة النخل[3] وأصناف الفواكه الأخرى، وقد أجمع الجغرافيون المسلمون على أن عمان اشتهرت بإنتاج

---

(١) انظر مثلاً: أبو عبيد البكري: المالك والمسالك، ص ٣٨.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٩٧.

(٣) يعتبر النخيل من أهم الأشجار بمنطقة الخليج منذ القدم وحتى الوقت الحاضر، وقد أنعم الله على أهل الخليج بهذه الشجرة التي هي سيدة الأشجار.

«النخل والفواكه من الموز والرمان والتين ونحو ذلك»[1].

وقد وصف ابن بطوطة أسواق العاصمة نزوا بالحسن وكثرة المساجد.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ازدهار الأحوال الاقتصادية بعُمان ووفرة الخيرات بها وذلك على الرغم من توقف النشاط التجاري بها في تلك الفترة.

الحياة الاجتماعية والدينية بعمان

وكما هو الحال في كل زمان ومكان يوجد الصالح والطالح، فقد وجد بعمان بعض أهل الفساد، غير أن ابن بطوطة لم يفرق بين الاثنين وحكم حكماً عاماً جائراً[2].

وبالنسبة لطعام أهل عمان فقد اعتمدوا مثلهم في

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٨، والاصطخري: مسالك الممالك، ص ٢٥، والبكري: الممالك والمسالك، ص ٣٧.

(٢) راجع تحفة النظار، ص ٢٦٣.

ذلك مثل أي بلد زراعي على المحاصيل الزراعية خاصة الحنطة والشعير. وكذلك مثلهم مثل بقية بلدان الخليج اعتمدوا كذلك على الأرز والسمك والتمر[١]، أي أنهم جمعوا بين طبيعة البلدان الزراعية وطبيعة البلدان البحرية التجارية.

أما المذهب الذي كان متبعاً في عمان فهو المذهب الإباضي[٢]، ويصف ابن بطوطة حياة أهل عمان الدينية بقوله: «وهم إباضية المذهب، ويصلون الجمعة ظهراً أربعاً، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ونثر كلامه شبه الخطبة يرضى فيه عن أبي بكر وعمر، ويسكت عن عثمان وعلي، وهم إذا أرادوا ذكر علي رضي الله عنه، كنوا عنه فقالوا: ذكر عن الرجل أو قال الرجل»[٣].

★ ★ ★

---

(١) البكري: الممالك والمسالك، ص ٣٧.

(٢) الإباضية فرقة من الخوارج، تنسب إلى عبد الله بن إباض التميمي. آنظر: البغدادي: الفرق بين الفِرق، ص ١٠٣ - ١٠٥، وابن رستة: الاعلاق النفيسة، ص ٢١٧.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

وقبل أن يغادر ابن بطوطة ساحل عمان أشار إلى بعض المدن والقرى التي مر بها وذكر منها القريات ودبا وكلبا وخورفكان وصحار، وقد وصفها بالحسن وأنها «ذات أنهار - يعني أفلاج - وحدائق وأشجار ونخل»[1].

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٣.

هرمز

ثم واصل ابن بطوطة رحلته فغادر عمان متجهاً صوب هرمز[١]، التي خضعت في تلك الفترة لحكم السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه وهو من أهل السنة. ووصلت هرمز عصر ابن بطوطة إلى أقصى درجات القوة والاتساع بعد أن استطاعت فرض سلطانها على جزيرة كيش وما تبع ذلك من فرض سيادتها البحرية على بعض نواحي سواحل عمان[٢]. ولم يعد لهرمز منافس في تجارة الخليج بعد اضمحلال شأن كيش، مما ساعد على هيمنتها التامة على تجارة الخليج، وخير شاهد على ذلك ما امتلأت به

---

(١) تبعد هرمز عن ساحل الخليج بمقدار اثني عشر ميلاً، وقد وصفها ياقوت بقوله: «مدينة على البحر إليها خور وهي على صفة ذلك البحر وهي على بر فارس، إليها ترفأ المراكب ومنها تنقل أمتعة الهند إلى كرمان وسجستان وخراسان، ومن الناس من يسميها هرموز: راجع معجم البلدان جـ ٥ ص ٤٠٢.

(٢) Heyd: Hist. de Commerce, T. II, p. 137
Wilson: The Persian Gulf, p. 106.

أسواقها من مختلف السلع والبضائع[١] ، وقد أكد هذه الحقيقة الرحالة البندقي ماركوبولو[٢] بقوله: « يرتاد ميناءها التجار من كل أرجاء الهند، وهم يجلبون التوابل والعقاقير، والأحجار الكريمة واللؤلؤ، ومنسوجات الذهب، كما يجلبون أنياب الفيلة، وأنواعاً أخرى مختلفة من البضائع. وهنا - أي بهرمز - يبيعون هذه البضائع لمجموعة مختلفة من التجار يتولون توزيعها بكل أرجاء العالم ».

وقد أشار ابن بطوطة إلى وجود مدينتين تحملان اسم هرمز، إحداهما هرمز القديمة وهي الواقعة على ساحل البحر والتي تسمى موغ أستان، والأخرى تقابلها وتحمل اسم هرمز الجديدة وبينهما ثلاثة فراسخ ومدينتها تسمى جرون[٣].

أما سبب إنشاء مدينة هرمز الجديدة فيعود كما حدثتنا كتب التاريخ إلى أن مدينة هرمز القديمة

---

(١) Heyd: Hist. de Commerce, T. II, p. 140
نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ص ١١٩ - ١٢٠.
(٢) رحلاته ص ٥٥.
(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٤.

كانت ذات شهرة تجارية، إذ وفدت عليها مختلف السفن التجارية وكانت مرفأ ممتازاً تفرغ فيه معظم السلع الواردة من أسواق الهند ثم تنقل منه الى بقية أسواق فارس[١] وكان نتيجة تلك الوفرة الاقتصادية طمع الكثيرين في الاستيلاء على هرمز. وهكذا أخذت هرمز تتعرض للهجوم من قبل الطامعين وذلك منذ أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، مما حدا بحكامها الى تأسيس مدينة جديدة أطلقوا عليها اسم هرمز الجديدة وذلك على حساب مجموعة من الجزر المواجهة لهرمز القديمة، وانتقلوا اليها وأصبحوا بذلك بعيدين عن غارات الطامعين. ومن هرمز الجديدة بدأ توجيه الضربات إلى جزيرة كيش وغيرها من المناطق المعادية، واستطاعوا الانتصار عليها كما سبق أن أوضحنا[٢].

التطورات السياسية بهرمز

وعندما وصل ابن بطوطة إلى هرمز كان بها

---

(١) وصف الجغرافيون هرمز القديمة بأنها كانت مركزاً تجارياً رائجاً، أنظر مثلاً الاصطخري: المسالك والممالك ص ٩٩.

(٢) Heyd: op. cit, T. II, p. 137, Wilson: op. cit, p. 106.

انقسام داخلي وحربأهلية بين السلطان قطب الدين وابني أخيه نظام الدين. وقد روى لنا ابن بطوطة سبب هذا الانقسام إلى ما قام به نظام الدين أخو قطب الدين من الخروج على أخيه وإعلان نفسه حاكماً على جزيرة هرمز منتهزاً فرصة خروج قطب الدين إلى هرمز القديمة للنزهة في بساتينها، وقد ساعد نظام الدين على ذلك وقوف أهل هرمز الجديدة الى جانبه. وإزاء هذا الموقف لم يسع قطب الدين إلا الإنسحاب والتوجه الى قلهات التي اتخذها مقراً له، ومنها أخذ في إعداد قوته لاستعادة حكمه في هرمز الجديدة.

وحاول قطب الدين مهاجمة أخيه أكثر من مرة لكنه مني بالهزيمة مما جعله يلجأ الى الحيلة، وكانت حيلته في ذلك هي الاتفاق مع بعض نساء أخيه للتخلص منه عن طريق السم.

ولم تلبث أن نجحت هذه الخطة وتخلص قطب الدين من أخيه نظام الدين وسارع بالتوجه بجيشه الى هرمز الجديدة حيث لم يستطع ابنا نظام الدين الوقوف في وجه عمهما ففروا بالخزائن والأموال والعساكر الى جزيرة كيش.

وبطبيعة الحال لم يكن منتظراً أن يسكت قطب الدين على ضياع جزيرة كيش من يده وذلك لما لجزيرة كيش من أهمية كبيرة لكونها مغاصاً للؤلؤ. بالإضافة إلى ذلك فإن ابني أخي قطب الدين دأبوا على الإغارة على بقية ممتلكات عمهما، وإلى التعرض للقوافل التجارية الآتية من الهند والمتجهة إلى هرمز، مما هدد معه الحياة الاقتصادية كلها بهرمز[1].

ولكل الأسباب السابقة تجددت نار الحرب بين قطب الدين وابني أخيه، تلك الحرب التي ظلت مشتعلة إلى أن قدم ابن بطوطة الى هرمز الجديدة.

وقد أخذت هذه الحرب من جهد ومال حكام هرمز الشيء الكثير، فضلاً عن انشغالهم عما عداها من شئون الدولة وأمور الرعية، وقد اتضح ذلك جلياً عن اعتذار وزير قطب الدين المسمى شمس الدين محمد ابن علي وقاضيه عماد الدين الشونكاري اعتذارهما لابن بطوطة عن انشغالهم عنه وعن باقي الناس بسبب « ما هم عليه من مباشرة الحرب ». أما الأثر السيء الذي

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٦.

تركته هذه الحرب فكان على اقتصاد هرمز الذي أخذ في الإنهيار. وخير دليل على ذلك ارتفاع الأسعار بها ارتفاعاً كبيراً وهو ما أشار إليه ابن بطوطة بقوله: «وكان الغلاء مستولياً على الجزيرة»[1].

الحالة الاقتصادية بهرمز

وأهم ما ميز الحياة الاقتصادية بهرمز هو ازدياد النشاط الاقتصادي بها، وما كانت عليه هرمز من «أسواق حافلة»، وهذا بطبيعة الحال نتيجة هيمنتها على تجارة الخليج. وقد أشار ابن بطوطة إلى أنها «مرسى الهند والسند، ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقين وفارس وخراسان»[2].

وقد عدد الباحثون السلع والبضائع التي كانت ترد إلى هرمز من شتى البلدان بالآتي: من الهند: الذهب، والأحجار الكريمة، واللآلي، والملابس الحريرية، وسن الفيل، والبخور. ومن جزيرة العرب: الخيول. ومن فارس: الملابس الموشاة، وماء

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٥.
(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٤.

الورد. ومن البحرين: اللؤلؤ، والفضة، والحديد، والنحاس. ومن عدن: القرفة، والفلفل، والزعفران، وخشب الصندل، والسكر، وجوز الهند، والملابس القطنية، والنحاس، والزئبق[1]. وقد أدى هذا إلى ازدياد النشاط التجاري بها ازدياداً كبيراً.

وبالاضافة إلى ذلك فقد وجد بهرمز جبال الملح الداراني، الذين أقاموا عليه صناعة «الأواني المزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها»[2].

وقد لفت نظر ابن بطوطة قلة الماء بهرمز، مما أدى إلى ازدياد قيمته بها. ويعتمد أهل هرمز على ماء المطر الذي يتجمع في عيون وصهاريج يصنعونها وهي على بعد من المدينة، ويحملون الماء من تلك الصهاريج والعيون في القُرَب على ظهورهم إلى حيث المراكب التي توصلهم إلى المدينة.

---

(١) Heyd: op. cit, T. II, p. 140, Miles: op. cit, p. 370 – 371

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٤.

الحياة الاجتماعية بهرمز

من أهم الملاحظات في هذا الجانب ما عرف عن حاكم هرمز قطب الدين من تواضع جم واختلاط بالأهالي، مثله في ذلك مثل حاكم عمان، في حين يختلف في ذلك مع حاكم ظفار. وقد أورد ابن بطوطة حادثة تؤكد ذلك وهي أنه عندما طلب مقابلة السلطان قبل رحيله عن هرمز بعد أن أقام بها ستة عشر يوماً، أخذه الوزير إلى مجلسه بداره على ساحل البحر، فإذا هناك جماعة من بينهم شخص «عليه أقبية ضيقة دنسة، وعلى رأسه عمامة، وهو مشدود الوسط بمنديل»، وسلم عليه الوزير، وجلس الجميع يتحدثون. وأخذ ابن بطوطة يحادث شخصاً يسمى علي شاه بن جلال الدين الكيجي حيث كان بينهما معرفة سابقة، معرضاً بذلك عن الشخص سابق الوصف دون أن يدرك أنه السلطان، وذلك بسبب تواضعه الشديد وبساطة ملبسه[1]. وقد عرف عن قطب الدين أنه اعتاد زيارة كل قادم على بلده خاصة الفقهاء وذوي الصلاح، ويقوم بأمر ضيافتهم خير قيام.

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

ونتيجة لذلك وفد على هرمز عدد من ذوي الصلاح الذين تقابل ابن بطوطة بأحدهم وهو الشيخ الصالح السائح أبو الحسن الأقصاراني، وأصله من بلاد الروم، وهو الذي استضاف ابن بطوطة وأهداه ثوباً وكمر الصحبة[1].

وكما هي عادة ابن بطوطة فإنه أخذ يبحث في هرمز على ما بها من مزارات فوجد على بعد ستة أميال من مدينة هرمز الجديدة مزاراً ينسب إلى الخضر وإلياس عليهما السلام، اعتقد فيه أهالي هرمز اعتقاداً كبيراً. كذلك تعرف ابن بطوطة على زاوية في آخر الجزيرة سكنها أحد المشايخ وصفه ابن بطوطة بأنه «رجل صالح»، وكان هذا الرجل في بادىء الأمر من كبار التجار، ثم حج إلى بيت الله الحرام ومال إلى الزهد والتنسك «فقطع العلائق وانقطع هنالك للعبادة، ودفع ماله لرجل من إخوانه يتجر له به» في حين انغمس هو في الزهد والتنسك، بالإضافة إلى استضافته للوافدين عليه والانفاق عليهم.

---

(١) أشار ابن بطوطة إلى أن كمر الصحبة هذا يحتبى به فيعين الجالس فيكون كأنه مستند. (تحفة النظار ص ٢٦٤).

أما طعام أهل هرمز فكان يتكون من السمك الذي يقومون باصطياده من الخليج، والتمر المجلوب إليهم من عمان والبصرة، وقد أشار ابن بطوطة إلى أن هذه الوجبة يطلق عليها اسم «التمر والسمك طعام الملوك» وباللغة الفارسية «خرما وما هي لوت باد شاهي»[1].

وقبل أن تترك هرمز لتتجول مع ابن بطوطة في بقية مدن وموانى الخليج، تجدر الإشارة إلى ما وصل إليه فن البناء بهرمز، حيث أقيمت بين الجامع والسوق سمكة كبيرة كانت عيناها بمثابة بابين «فترى النـــــاس يدخلون من إحداهما ويخرجون من الأخرى»، وكانت من الحسن لدرجة جعلت ابن بطوطة يعدها من العجائب[2].

★ ★ ★

وقد انتهز ابن بطوطة فرصة وجوده بهرمز، وقصد مدينة خنج بال لزيارة زاوية الشيخ أبي دلف

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٤.
(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٤.

وهو أحد الرجال المشهورين هناك، ووصف خلال رحلته إلى خنج بال المدن الفارسية التي مر بها مثل كوراستان ولار. ثم قفل راجعاً مرة أخرى إلى الخليج حيث وصل إلى جزيرة كيش.

جزيرة كيش

أفاض ابن بطوطة في مدح جزيرة كيش أو قيس[١]، وقال عنها: «مدينة لها انفساح وسعة، طيبة البقعة، في دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والأشجار الناضرة»[٢]. ولم يكن ابن بطوطة هو وحده الذي امتدح كيش وأسواقها وإنما شاركه في ذلك العديد من الجغرافيين فهذا هو ياقوت الحموي الذي قال عنها[٣]: «رأيتها مراراً، وشربهم من آبار فيها، ولخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر، وفيها أسواق وخيرات». كذلك قال عنها شيخ

---

(١) يطلق عليها كيش أو قيس، نسبة إلى قيس بن عمرو.
راجع: النويري: نهاية الأرب جـ ١ ص ١٤٥.
وقد حدد موقعها ياقوت بقوله: «وقيس جزيرة وهي كيش في بحر عمان، دورها أربعة فراسخ» راجع معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٢٢.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٩.

(٣) معجم البلدان، جـ ٤ ص ٤٢٢.

الربوة[1]: «عامره مأهوله بها بساتين كثيرة».

وأول ما يسترعي انتباهنا هو تسمية ابن بطوطة لها بسيراف، على الرغم من أن سيراف تختلف كثيراً عن كيش أو قيس، فما هي حقيقة الأمر؟

المتتبع لتاريخ كيش يجد أنها استطاعت فرض سيادتها البحرية على تجارة الخليج منذ نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، خاصة بعد أن اضمحل شأن سيراف التي كانت تحتل مكان الصدارة في تجارة الخليج[2]. وعاش تجار سيراف في سعة من العيش والغنى الفاحش، لدرجة جعلت الجغرافي التاجر ابن حوقل يقول عنهم[3]: «وأهلها موسرون جداً حتى أنه يحكى عن أحدهم أنه مرض فأوصى فكان ثلث ماله الحاضر عنده ألف ألف دينار غير ما كان له مع المضاربين». أما الإصطخري فقد أشاد بسيراف وأهلها وما وصلوا إليه من الغنى وتشييدهم

---

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص١٦٦.

(٢) عن نشاط سيراف التجاري راجع آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٤٣٢ - ٤٣٤.

(٣) صورة الأرض، ص ٢٨٣.

المباني الشاهقة المتعددة الطوابق والانفاق عليها ببذخ شديد[1]. والواقع أن النشاط التجاري في الخليج حتى القرن الرابع الهجري ارتبط كثيراً باسم التجار السيرافيين الذين أخلصوا لعملهم كتجار وبحارة. ويحكي ابن حوقل عما شاهده بنفسه من حب أهل سيراف للبحر بقوله[2]: «ربما غاب أحدهم عامة عمره في البحر. ولقد بلغني أن رجلًا من سيراف ألف البحر حتى ذكر أنه لم يخرج من السفينة نحو أربعين سنة، وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه فقضى حوائجه في كل مدينة، ويتحول من سفينة إلى أخرى إذا انكسرت أو احتيج إلى اصلاحها». وعلى هذا النحو هيمن السيرافيون على الملاحة والتجارة بالخليج في تلك الفترة، وقد أكد المسعودي ذلك بقوله[3]: «ويقطع هذا البحر - يقصد الخليج - السيرافيون. وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار من بلاد عمان مع جماعة من نواخذة السيرافيين وهم أرباب المراكب».

---

(١) الإصطخري: المسالك والممالك، ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) صورة الأرض، ص ٢٩٠.

(٣) مروج الذهب، جـ ١ ص ١٠٨.

واستمرت سيراف تحتل مكان الصدارة في تجارة الخليج حتى نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، إلى أن اضمحل شأنها. ويعود السر في اضمحلال شأنها إلى اصابتها بزلزال مدمر أدى إلى تدمير منازلها وأسواقها وجعلها غير صالحة للتجارة، مما دفع بأهلها إلى النزوح إلى مدينة كيش، وقد ساعد ذلك على ازدهار أحوال كيش وهيأ لها الفرصة في أن ترث سيراف وتحتل مكان الصدارة في تجارة الخليج.

وأصبحت أسواق كيش تعج بالتجار السيرافيين منذ ذلك الوقت، ويبدو أنه نتيجة ذلك أن اختلط الأمر على ابن بطوطة عندما ذكر «أن مدينة قيس - كيش - تسمى أيضاً بسيراف».

وقد تجمعت عدة عوامل لتساعد على تبوأ كيش مكان الصدارة في تجارة الخليج، فبالإضافة إلى خراب سيراف إثر الزلزال المدمر، تمتعت كيش بخصوبة الأرض ووفرة المياه العذبة بها، وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك بقوله[1]: «وشرب أهلها من عيون

---

(١) تحفة النظار، ص ٢٦٩.

وانظر أيضاً ياقوت: معجم البلدان، جـ ٤ ص ٤٢٢.

منبثقة من جبالها »، كذلك فإن السياسة التي اتبعها حاكم كيش هيأت له فرصة السيادة على تجارة الخليج، وهي سياسة قامت على الاحتكار التجاري ومحاولة فرض النفوذ عن طريق القوة والقرصنة[١]، ويؤكد ذلك ما ذكره ياقوت الحموي[٢] بقوله: « ولملكها هيبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ودوانيمه، وهو فارسي، شكله ولبسه مثل الديلم، وعنده الخيول العراب الكثيرة والنعمة الظاهرة ». كل ذلك ساعد على ما وصلت إليه جزيرة كيش من نفوذ تجاري كبير في منطقة الخليج في تلك الفترة.

غير أن الأمور لم تلبث أن تبدلت بجزيرة كيش، فبعد أن استمرت مهيمنة على تجارة الخليج منذ نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، أخذت تفقد مكانتها التجارية مع بداية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وذلك بعد دخولها في صراع مرير مع مدينة هرمز، وهو الصراع الذي

(١) نعيم زكي: طرق التجارة الدولية، ص ١٢٢.

(٢) معجم البلدان، جـ ٤ ص ٤٢٢.

وانظر أيضاً شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ١٦٦.

انتهى بانتصار الأخيرة عام ٧٣٠ هـ/١٣٣٠ م، وفرض سيطرتها على تجارة الخليج ومن ثم اضمحل شأن كيش في تجارة الخليج[١].

الغوص

وعند حديث ابن بطوطة عن سيراف وكيش، تناول الغوص وعملية استخراج اللؤلؤ وهو من أهم الأمور التي دار حولها جزء كبير من حياة أهل الخليج، وأشار إلى أن أهم أماكن استخراجه المنطقة الواقعة بين سيراف والبحرين وذلك في خور راكد مثل الوادي العظيم[٢].

---

(١) راجع ما سبق ذكره عن الصراع بين هرمز وكيش.

(٢) يقول الله عز وجل ﴿مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان. فبأي آلاء ربكما تكذبان. يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان. فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ سورة الرحمن آية ١٩ - ٢٣. وينكر الجغرافي المقدسي أن المقصود بالبرزخ من الفرما إلى القلزم، أما البحرين فهما العذب والملح لأنهما لا يختلطان، أما المرجان فيخرج من بحر الروم (البحر المتوسط) واللؤلؤ فيخرج من الخليج العربي الذي هو أحد خلجان البحر الصيني. (أحسن التقاسيم، ص١٦ - ١٧) وجاء في تفسير هذه الآيات الكريمات أن قوله تعالى =

وقد حدد الكتاب المسلمون خاصة الجغرافيين منهم أماكن استخراج اللؤلؤ في الخليج وهي ما يطلق عليه اسم مغاص اللؤلؤ، ويطلق على مغاص اللؤلؤ أيضاً اسم الجهاز أي الموضع المعروف بوجود اللؤلؤ، ويطلق عليه أبناء الخليج في الوقت الحاضر اسم « هير »[1]. وقد ذكر المقدسي[2] أن: « اللؤلؤ في هذا الإقليم بحدود هجر يغاص عليه في البحر بإزاء أوال وجزيرة خارك »، كذلك أشار شيخ الربوة[3] إلى أن بجزيرة كيش - قيس - وجزيرة خارك مغاص اللؤلؤ.

= ﴿يخرج منهما﴾ تعني يخرج من أحدهما، أو من بعضهما. ويخرج منهما اللؤلؤ والمرجان أي يخرج من أحدهما وهو الملح اللؤلؤ والمرجان، وإنما قيل منهما لأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال يخرجان منهما، كما يقال يخرجان من البحر، وهما لا يخرجان من جميعه ولكن من بعضه. وكما تقول خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محلاته. وقد ينسب إلى الاثنين ما هو واحد. راجع: صفوة البيان لمعاني القرآن، ص٦٨٨ - ٦٨٩.

(١) راجع يحيى بن ماسويه: الجواهر وصفاتها، ص٣٣ - ٣٧ حيث حدد أماكن استخراجه، وانظر أيضاً: ابن الأكفاني: نخب الذخائر في أحوال الجواهر، ص٣٠ - ٣٢، إبراهيم راشد الصباغ: صيد اللؤلؤ ص٨٨.

(٢) أحسن التقاسيم، ص١٠١. (٣) نخبة الدهر، ص١٦٦.

أما موسم الغوص فقد حدده ابن بطوطة ابتداء من شهري ابريل ومايو (نيسان وأيار) وذلك عندما يتوجه الغواصون من مختلف أنحاء الخليج ومعهم التجار خاصة من البحرين والقطيف وفارس الى مغاصات اللؤلؤ[1]. وتستمر عملية الغوص الى آخر شهر سبتمبر (أيلول)، أي تستمر لمدة خمسة أشهر فقط من كل عام، وقد أكد هذه الحقيقة كلاً من المسعودي والبيروني بقولهما[2]: «إن الغوص يكون من أول نيسان (إبريل) إلى آخر أيلول (سبتمبر)، وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيه».

★ ★ ★

ثم وصف ابن بطوطة عملية الغوص نفسها والهيئة التي يكون عليها الغواص وكيفية استخراج اللؤلؤ بقوله[3]؛ «ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئًا يكسوه من عظم الغيلم، وهي السلحفاة،

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٩.

(٢) مروج الذهب، جـ ١ ص ١٤٨، والجماهر في معرفة الجواهر ص ١٤١ - ١٤٢.

(٣) تحفة النظار، ص ٢٦٩.

ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المقراض يشده على أنفه، ثم يربط حبلاً في وسطه، ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء، فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك، فإذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجارِ الصغار مثبتاً في الرمل، فيقتلعه بيده، أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك، ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه، فإذا ضاق نفسه حرك الحبل، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل، فيرفعه إلى القارب، فتؤخذ منه المخلاة ويفتح الصدف، فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة، فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر ».

وبمقارنة ما ذكره ابن بطوطة عن عملية الغوص وكيفية استخراج اللؤلؤ مع ما ورد من المصادر الأخرى يتضح لنا صحة النصف الأول من حديثه وهو الخاص بالهيئة التي يكون عليها الغواص وكيفية جمع الأصداف، بينما ندرك تماماً خطأ ما جاء على لسان ابن بطوطة بشأن استخراج اللؤلؤ من الأصداف. ولندع يحيى بن ماسويه (ت ٢٤٣ هـ/٨٥٧م) وهو من الكتاب القدامى يحكي لنا ما كان عليه الغوص في

أيامه[1] حيث يقول: «وغوص البحر أكثره على أربعة عشر قيماناً[2]، وكان فيما مضى يبلغ عشرين قيماناً، وإنما هو على قدر الصبر في الماء، وكلما عمق كان أشد عليهم وأكثر لإفادته. وفي طرف الحبل حجر معلق يكون نحو ثلاثين مناً، فيضع الغائص قدمه عليه وينحدر في الماء إلى قرار البحر عرياناً وعليه فوطته ومعه مخلاة من شريط محموله في عنقه، وله ملازم[3] من ذيل[4] أو عاج أو قرون[5] يلزمه أنفه لئلا يدخله الماء[6]. ولا يعد الغائص في الغاصة حتى ينخرق ما

---

(١) كتاب الجواهر وصفاتها، ص٣٨ - ٤٠.

وعن كيفية الغوص راجع: البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر ص١٤٣ - ١٥٠، إبراهيم راشد الصباغ: صيد اللؤلؤ ص٨٢ - ٨٦.

(٢) القيمان وحدة لقياس الأعماق، تساوي باعاً.

(٣) الملازم اسم الأداة التي تشد على أنف الغواص، وتعرف هذه الأداة اليوم بين أبناء الخليج باسم «القطام».

(٤) الذيل في اللغة هو ظهر السلحفاة البحرية (الصحاح ص ٢٢٠).

(٥) عن استخدام الغواص للذيل والقرن راجع: المسعودي: مروج الذهب، جـ١ ص١٤٨ - ١٤٩.

(٦) يطابق ما أورده يحيى بن ماسويه ما ذكره البكري عن عملية الغوص حيث قال: «وإذا أراد الغواص أن يغوص عمد إلى آلة =

بين أذنيه وحلقه، فينبعث دماً ثم يتمزق ويستمر فيكون فيه تنفساً ضعيفاً[1]. والمبتدئون في التعليم إذا انحدروا بالأرسان - أي الحبال - صاروا إلى القرار، فإذا وجدوا البلبل[2] ملأوا مخاليهم منه، ثم يحركون الحبال فيجرون حتى يظهروا فوق الماء، ثم يسبحون إلى المراكب. وإن لم يجد أحدهم البلبل ترك حجره ودار في البحر ويتبع الصدف الكبار وهي ملتصقة بالحشر فيقلعه بيده حتى يملأ مخلاته ويتباعد من

= ذات شعبتين قد اتخذت من القرون دقيقة جداً تضم المنخرين، فتمنع الماء منهما. ويشد في إحدى رجليه صخرة منقورة فيها مقدار عشرين مناً، ويشد معها وعاء قد اتخذ من شماريخ النخل يسمى الرصين - وقد أشار المحقق إلى أن هذه الكلمة مصحفة ويسمى في الكويت الديين - يحصل فيه ما وصل إليه من الصدف، فإذا ملأه حرك الحبل فيجذبوه». راجع الممالك والمسالك، ص٣٦.

(١) وقد أوضح المسعودي أسباب هذه العملية بقوله: «وشق أصول آذانهم لخروج النفس من هناك بدلاً من المنخرين، يجعل عليها شيء من الذيل وهو ظهور السلاحف البحرية التي يتخذ منها الأمشاط، أو من القرن بضمها كالمشقاص لا من الخشب. (أنظر: مروج الذهب جـ١ ص١٤٨ - ١٤٩).

(٢) البلبل هو صدف اللؤلؤ المعروف بالمحار.

راجع: المسعودي: مروج الذهب، جـ١ ص١٤٨.

حجره مقدار عدوه، ويصير تحت الماء نصف ساعة، وإن أعجله أمر عن الحجر أو ضل عن موضعه ذلك، ظهر فوق الماء ثم سبح إلى سفينته أو يلقوه بسفينة أخرى أو سبحوا إليه فاستنقذوه».

ومن العرض السابق يتضح لنا صحة ما أورده ابن بطوطة عن هيئة الغوّاص وكيفية جمع الأصداف. أما بقية حديثه خاصة ما يتعلق باستخراج اللؤلؤ من الأصداف فيشوبه خطأ ويتضح ذلك من قوله:[1] «ويفتح الصدف، فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة، فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جوهراً».

والواقع أن آراء القدماء اختلفت في تفسير تكوين اللؤلؤ[2]. ومن المعروف حديثاً أن اللؤلؤ يتكون نتيجة إفرازات يقوم بها الحيوان البحري الموجود داخل الصدفة وذلك عندما يحس بخطر قادم عليه من جراء دخول جسم غريب داخل الصدفة،

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٩.

(٢) راجع ما ذكره: يحيى بن ماسويه: كتاب الجواهر وصفاتها، ص ٣٠ - ٣١، المسعودي: مروج الذهب، جـ ١ ص ١٤٨، ابن الأكفاني: نخب الذخائر في أحوال الجواهر، ص ٢٦ - ٢٩.

فيقوم هذا الحيوان بإفراز مادة تتكون من كاربونات الكالسيوم ومادة عضوية قرنية أخرى تعرف باسم كيوتكلين Cuticline حول هذا الجسم الغريب لحماية جسمه هو من الخطر. وهذه المادة هي التي تشكل فيما بعد اللؤلؤ. وكلما طال بقاء الصدفة في قاع البحر، كبر حجمها. وبعد أن يتم استخراج الأصداف تترك فترة من الوقت حتى يموت الحيوان البحري الموجود داخلها ليسهل كسر الصدفة، وبعد كسر الصدفة يتم استخراج اللؤلؤة بينما يرمى بذلك الحيوان[1].

★ ★ ★

ثم شرح ابن بطوطة في كلمات قليلة النظام الاقتصادي الذي كان متبعاً بشأن استخراج اللؤلؤ والعلاقة بين الغواص والتاجر، وقد أشار إلى ما كان متبعاً من استدانة الغواصين الأموال من التجار على أمل تسديد هذه الديون لؤلؤاً، وبالفعل بعد أن يستخرج الغواصون اللؤلؤ يأخذ التجار منه جزءًا كبيراً

(١) وعن كيفية تكوين اللؤلؤ راجع: عبد الله يوسف الغنيم: الغوص على اللؤلؤ، ص ٣٣ - ٣٩.

في مقابل تلك الديون التي سبق وأن استدانها الغواصون[1]. ومن الجدير بالذكر أن الجغرافي أبا عبيد البكري (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م) أشار إلى أن معظم التجار خاصة في مغاص معبت وهو أحد مغاصات عمان، كانوا من اليهود والنصارى، وكانوا يقومون باستئجار الغواصين الذين كانوا يقومون بعملية الغوص وجمع الأصداف، وقد حدد البكري أيضاً الأجر الذي كان يتقاضاه الغواص بقوله: «وأجر الغواص من قيراط إلى نصف درهم يغوصون من بكرة إلى نصف النهار»[2].

ومن جهة أخرى فإن السلطان كان يأخذ جزءًا من ذلك اللؤلؤ وهو ما يعادل الخمس[3]، والمقصود

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٩.

(٢) الممالك والمسالك، ص ٣٦.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٦٩.

ومن الجدير بالذكر أنه جرت العادة منذ القدم على أن يأخذ سلطان البحرين خمس ما في بيت المال. راجع: ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٢٥. وذلك فضلًا عن تحصيله نصف ما يستخرج من اللؤلؤ في مغاصات البحرين (انظر: ناصر خسرو: سفرنامة ص ١٤٤، وانظر بعده الحواشي).

هنا بالسلطان، سلطان هرمز قطب الدين الذي استطاع فرض سلطانه على جزيرة كيش والبحرين والمنطقة الواقعة بينهما التي هي مغاص اللؤلؤ[١]. وقد سبق أن أشرنا إلى أن قطب الدين هذا أعلن الحرب على ابني أخيه عندما اقتطعا من ملكه جزيرة كيش وذلك بسبب ما تتمتع به كيش من أهمية خاصة في الغوص على اللؤلؤ[٢].

---

(١) كان حاكم كيش قبل اضمحلال شأنها ودخولها تحت سيادة هرمز، يستحوذ على ما تدره مغاصات اللؤلؤ من خيرات، فقد أشار ياقوت الحموي إلى ذلك عند حديثه على جزيرة كيش: «وفيها مغاص على اللؤلؤ، وفي جزائر كثيرة حولها وكلها ملك صاحب كيش». راجع معجم البلدان، جـ ٤ ص ٤٢٢.

(٢) تفاوت مقدار ما يأخذه الحكام من أنصبه على استخراج اللؤلؤ عبر الأزمان ففي القرن السادس كان حاكم البحرين يأخذ نصف ما يستخرج من اللؤلؤ. راجع: ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٤٤، وأنظر أيضاً: عبد الله يوسف غنيم: الغوص على اللؤلؤ، ص ٢٢ - ٢٣.

البحرين

ومن سيراف اتجه ابن بطوطة صوب البحرين[١] ، التي كانت من أكبر مدن الخليج في تلك الفترة. وقد وصفها ابن بطوطة بقوله[٢]: «وهي مدينة كبيرة حسنة، ذات بساتين وأشجار وأنهار، وماؤها قريب المؤنة يحفر عليه بالأيدي فيوجد، وبها حدائق النخل والرمان والأترج، ويزرع بها القطن».

أما مناخ البحرين فكان شديد الحرارة كما وصفه ابن بطوطة[٣]، مما دفع أهلها لأن يكون أكثر سيرهم

---

(١) يذكر ياقوت أنها سميت بالبحرين نسبة إلى البحيرة الموجودة على باب الاحساء (معجم البلدان، جـ ١ ص ٣٤٧) وكان يطلق عليها قديماً اسم هجر نسبة إلى هجر بنت المكنف التي شيدتها. (راجع القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٥ ص ٥٤).

(٢) تحفة النظار، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٣) تحفة النظار، ص ٢٧٠.

ليلًا أو في الصباح الباكر تلافياً لشدة الحرارة[1].

وكانت البحرين عصر ابن بطوطة تمثل قطاعاً جغرافياً وسياسياً كبيراً يمتد من البصرة شمالاً إلى عمان جنوباً، وإلى ذلك يشير الحميري أيضاً وهو من جغرافيي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بقوله[2]: «وهي بلاد واسعة شرقيها ساحل البحر، وجوفها متصل باليمامة، وشمالها متصل بالبصرة، وجنوبها متصل ببلاد عمان، وقاعدتها حجر» كذلك يؤكد الحميري ما ذكره ابن بطوطة من كثرة العيون والماء العذب بالبحرين وسهولة حفر الآبار بها بقوله: «وهي بلاد سهلة كثيرة الأنهار والعيون عذبة الماء، ينبطون الماء على القامة والقامتين». أما وفرة انتاجها الزراعي فقد أكد عليه كذلك الحميري بقوله: «والحناء والقطن على شطوط أنهارها، وهي كثيرة النخل والفواكه»[3].

---

(١) البكري: الممالك والمسالك، ص ٣٨.
الحميري: الروض المعطار، ص ٨٢.

(٢) الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٨٢.

(٣) أنظر أيضاً ما ذكره البكري عن وصف البحرين، الممالك والمسالك، ص ٨٢.

وبالإضافة إلى ما اشتهرت به البحرين من انتاج زراعي، كانت مغاصات اللؤلؤ بها تشكل مورداً اقتصادياً هاماً لها، إذ استخرج من مغاصاتها أجود أنواع اللؤلؤ وقصدها التجار والغواصون من مختلف أنحاء الخليج[١]. كذلك شَكَّلَ صيد السمك مورداً آخراً لأهالي البحرين.

وبالإضافة إلى ما سبق فقد لعبت البحرين منذ أقدم العصور دوراً كبيراً في تجارة الخليج بصفة خاصة وفي التجارة العالمية بوجه عام، حيث كانت كافة السفن القادمة من الهند تمر بموانى البحرين في طريقها إلى العراق[٢]. واستمرت البحرين تؤدي دورها التجاري طيلة العصور الوسطى، وذكر الملاح أحمد بن ماجد[٣] أن الحركة التجارية بالبحرين كانت في نشاط دائم. ولما كانت البحرين مدينة بحرية تجارية اهتمت

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٥١ - ٥٢،
القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٧٧.

(٢) Miles: The countries and tribes of the Persien Gulf, p. 356.

(٣) الفرايد في أصول البحر والقواعد، ص ٦٩.

اهتماماً كبيراً بإنشاء أسطول بحري قوي ساعد على تنشيط الحركة التجارية بالخليج، ومن جهة أخرى كان لهذا الأسطول دور كبير في تأمين وحماية النشاط التجاري بمنطقة الخليج كلها.

ومن الملاحظات الهامة التي أشار إليها ابن بطوطة ما يتعلق بالطريق البري الذي كان يصل بين البحرين وعمان حيث زحفت عليه الرمال أو على حد تعبير ابن بطوطة: «استولت عليه الرمال»[1]. ولم يعد في مقدور التجار عبوره، ولذلك أصبح الطريق البحري هو الطريق الوحيد الذي يربط بين البحرين وعمان.

وقد تجول ابن بطوطة أثناء وجوده بالبحرين في بعض مدنها الشهيرة مثل القطيف[2] التي قال عنها:

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٧٠.

وأنظر أيضاً الحميري: الروض المعطار، ص ٨٢.

ويضيف البكري إلى أن بلاد البحرين فيها الكثبان جارية الرمال، وكان أهل البحرين يحاولون وقف زحف الرمال عن طريق سعف النخل، وفي أحيان أخرى كانت الرمال تغلب عليهم وتزحف على منازلهم. (الممالك والمسالك، ص ٣٩).

(٢) من أهم مدن البحرين القطيف والاحساء والدارين، راجع: ابن الفقيه: البلدان ص ٣٠، البكري: الممالك والمسالك، ص ٣٩، =

«كأنه تصغير قطف، وهي مدينة كبيرة ذات نخل كثير، يسكنها طوائف العرب، وهم رافضية غلاة يظهرون الرفض جهاراً لا يبقون أحداً، ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين أشهد أن عليًّا ولي الله، ويزيد بعد الحيعلتين: حي على خير العمل، ويزيد بعد التكبير الأخير: محمد وعلي خير البشر، ومن خالفهما فقد كفر»!![1].

كذلك زار ابن بطوطة مدينة الاحساء أو هجر[2]، التي اشتهرت بكثرة نخيلها، ووصفها

- القلقشندي. صبح الأعشى، جـ ٢ ص ٥٥، الحميري: الروض المعطار ص ٨٢.

(١) والمعروف أن بلاد البحرين شهدت ظهور القرامطة بها خاصة في القطيف، واستمرت تلك الحركة بها إلى أن قضي عليها عام ٤٧٠ هـ/١٠٧٨ م، ولكن استمرت آثارها باقية بعد ذلك في مختلف مدن البحرين.

راجع: البكري: الممالك والمسالك، ص ٤٠ - ٤٣،

حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، جـ ٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٩.

(٢) اطلق عليها الاحساء نسبة إلى احساء بني سعد. راجع: شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ٢٢٠.

بقوله[١]: « وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها »[٢]. وقد بلغت كثرته أن اتخذه أهلها طعاماً لدوابهم[٣]. أما أهل الاحساء فكانوا عرباً وأكثرهم من قبيلة عبد القيس[٤].

★ ★ ★

ومن الاحساء اتجه ابن بطوطة إلى اليمامة[٥]، ومنها اتخذ طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج عام ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م لتنتهي بذلك رحلته الأولى لمنطقة الخليج، تلك الرحلة التي أمدتنا بمعلومات طيبة عن الحياة في الخليج في العصور الوسطى.

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٧٠.

(٢) وقد ضرب المثل بكثرة نخيلها « كمستبضع التمر إلى هجر » راجع الميداني: مجمع الأمثال جـ ٢ ص ١٥٢.

(٣) ونتيجة كثرة النخلِ بالاحساء قال عنها شيخ الربوة إنه يحيط بها غوطة نخل. راجع: نخبة الدهر، ص ٢٢٠.

(٤) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٧٠.

(٥) سميت باليمامة نسبة إلى اليمامة الزرقاء، وكانت قبل ذلك تسمى جو. راجع شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

الخاتمة

وصفوة القول وكما يتضح من حديث ابن بطوطة أن الحياة في منطقة الخليج تشابهت إلى حد بعيد في مختلف مظاهرها وأنماطها خاصة الجانبين الاجتماعي والاقتصادي. وهذا يعود في المقام الأول إلى أن أهالي المنطقة ينتمون إلى عدة قبائل عربية تتفق معظمها في كثير من العادات والتقاليد[1]. بالإضافة إلى ذلك تمتعت منطقة الخليج بوحدة جغرافية ساعدت كثيراً على زيادة الترابط بين سكانها، ويعتبر ذلك من أهم مقومات الوحدة.

وكما سبق أن أشرنا فإن سكان منطقة الخليج ينتمون إلى عدة قبائل عربية بالإضافة إلى عدة جاليات هندية وفدت عليها نتيجة عوامل الاتصال التجاري، وقد أدى هذا التجانس السكاني إلى زيادة

---

(١) الشيخ محمد بن أحمد الخزرجي: العادات والتقاليد في دولة الامارات، ص ٤٤.

الترابط، هذا بالإضافة إلى رباط الدين حيث كان للإسلام فضل كبير في زيادة تماسكهم وترابطهم. بالإضافة إلى ذلك كان للغة العربية لغة القرآن الكريم دور كبير في زيادة وحدة المنطقة.

ومن الناحية الاجتماعية تشابهت عادات وتقاليد المنطقة بأسرها سواء كان ذلك في المأكل أو الملبس أو في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية وعلاقة أهالي المنطقة بعضهم ببعض ومعاملة الغرباء وأبناء السبيل وغير ذلك من أمور اجتماعية.

كذلك ارتبطت حياة أهل الخليج بالبحر ارتباطاً كبيراً، ويعتبر ذلك انعكاساً للموقع الجغرافي لمنطقة الخليج التي هي امتداد لخليج عمان. وقد أدى انفتاح خليج عمان على المحيط الهندي إلى انفتاح المنطقة كلها على العالم، وزاد في تعميق الاتصالات التجارية وغير التجارية، وساعد على الاحتكاكات الحضارية مع بقية بلدان العالم على مر العصور[1].

---

(١) دولة الامارات العربية، دراسة مسحية، ص ٥.

وفي الجانب الزراعي أوضح ابن بطوطة حقيقة هامة ألا وهي انتشار الزراعة في منطقة الخليج، وكيف وصلت في بعض بلدانه إلى مراحل متطورة، وما حدث من اعتماد أهالي بعض المدن عليها كمورد اقتصادي، وكيف أقيم على بعض المنتجات الزراعية الصناعات المختلفة.

ولا شك في أن كتابات ابن بطوطة تعتبر وثيقة هامة في حفظ تراث المنطقة بما أشار إليه من وصف حي للغوص على اللؤلؤ، الذي دارت حوله حياة أهل الخليج وارتبطوا به اقتصادياً واجتماعياً.

بالإضافة إلى ذلك فقد أشار ابن بطوطة إلى ما ساد منطقة الخليج من صراع سياسي وعسكري، وهو صراع عهدته المنطقة على مر عصورها التاريخية.

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم:

٢ - ابن الأكفاني: (ت ٧٤٩ هـ)
محمد بن إبراهيم.
نخب الذخائر في أحوال الجواهر.
بيروت.

٣ - ابن بطوطة: (ت ٧٧٩ هـ)
أبو عبد الله محمد بن محمد.
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.
بيروت ١٩٦٨.

٤ - ابن البيطار: (ت ٦٤٦ هـ)
ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي.
الجامع لمفردات الأدوية والأغذية.
بغداد - مكتبة المثنى.

٥ - ابن حجر العسقلاني: (ت ٨٥٢ هـ)
شهاب الدين أحمد.
الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة.
دار الكتب الحديثة ١٩٦٦.

٦- ابن حوقل: (ت ٣٨٠ هـ)

أبو القاسم ابن حوقل النصيبي.

صورة الأرض.

بيروت- دار مكتبة الحياة.

٧- ابن خلدون: (ت ٨٠٨ هـ)

عبد الرحمن بن محمد.

العبر وديوان المبتدأ والخبر.

بولاق ١٢٨٤ هـ.

٨- ابن رسته:

أبو علي أحمد بن عمر.

الأعلاق النفيسة.

ليدن ١٩٦٧.

٩- ابن الفقيه: (أواخر القرن الثالث الهجري).

أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني.

مختصر كتاب البلدان.

ليدن ١٣٠٢ هـ.

١٠- ابن ماجد: (من ملاحي القرن الخامس عشر الميلادي).

شهاب الدين أحمد بن ماجد.

الفرايد في أصول البحر والقواعد.

باريس ١٩٢١ م.

١١ - أبو الفدا: (ت ٧٣٢ هـ)
عماد الدين اسماعيل بن محمد.
- المختصر في أخبار البشر.
بيروت - دار المعرفة.
- تقويم البلدان.
باريس ١٨٤٠.

١٢ - ابراهيم راشد الصباغ:
صيد اللؤلؤ.
بيروت ١٩٨٣.

١٣ - الإدريسي: (ت ٦٥٠ هـ)
محمد بن محمد بن عبد الله بن علي.
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.
العراق ١٩٧١.

١٤ - آدم متز:
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.
ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة.
القاهرة ١٩٥٧.

١٥ - الإصطخري: (توفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري).
أبو اسحق إبراهيم بن محمد.
مسالك الممالك.
ليدن ١٩٦٧.

١٦ - أنور عبد العليم:
ابن ماجد الملاح.
القاهرة ١٩٦٧.

١٧ - البغدادي: (ت ٧٣٩ هـ)
صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق.
مراصد الاطلاع.
دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤.

١٨ - البغدادي: (ت ٤٢٩ هـ)
عبد القاهر بن طاهر بن محمد.
الفرق بين الفِرق.
دار المعرفة - بيروت.

١٩ - البكري: (ت ٤٨٧ هـ)
أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز.
الممالك والمسالك (القسم الخاص بجزيرة العرب تحقيق د. عبد الله يوسف الغنيم).
الكويت ١٩٧٧.

٢٠ - البيروتي: (ت ٤٤٠ هـ)
محمد بن أحمد أبو الريحان.
الجماهر في معرفة الجواهر.
بيروت.

٢١ - توماس أرنولد:
الدعوة إلى الإسلام.
ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون.
القاهرة ١٩٥٧.

٢٢ - الجاحظ: (ت ٢٥٥ هـ)
أبو عثمان عمرو بن بحر.
التبصر بالتجارة.
بيروت ١٩٦٦.

٢٣ - جمال الدين زكريا:
الخليج العربي.
القاهرة ١٩٦٦.

٢٤ - جمال الدين سرور:
الحضارة الإسلامية في الشرق.
القاهرة ١٩٦٥.

٢٥ - حسن إبراهيم حسن:
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي.
القاهرة ١٩٧٤.

٢٦ - حسن صالح شهاب:
فن الملاحة عند العرب.
بيروت ١٩٨٢

٢٧ - حسنين محمد مخلوف:
صفوة البيان لمعاني القرآن.
أبو ظبي ١٩٨١.

٢٨ - الحميري: (ت ٩٠٠)
محمد عبد المنعم الحميري.
الروض المعطار في خبر الأقطار.
مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠.

٢٩ - خولة الدجيلي:
بيت المال نشأته وتطوره.
بغداد ١٩٧٦.

٣٠ - دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة مسحية.
معهد البحوث والدراسات العربية.
جامعة الدول العربية ١٩٧٨.

٣١ - **Day clive:**
A History of commerce
London, 1940.

٣٢ - الرازي:
محمد بن أبي بكر بن عبد القادر.
مختار الصحاح.
بيروت ١٩٨١.

٣٣ - سعد زغلول عبد الحميد:
تاريخ المغرب العربي.
الاسكندرية ١٩٧٩.

٣٤ - سعيد عاشور:
- العصر المماليكي.
القاهرة ١٩٦٥.

- المدينة الإسلامية.
القاهرة ١٩٦٣.

٣٥- شيخ الربوة: (ت ٧٢٧ هـ)
محمد بن أبي طالب الأنصاري.
نخبة الدهر وعجائب البر والبحر.
ليبزج ١٩٢٨.

٣٦- عبد الله يوسف الغنيم:
الغوص على اللؤلؤ في المصادر العربية.
الكويت ١٩٧٣.

٣٧- عبد الرحمن بن الربيع: (ت ٩٤٤ هـ)
عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر.
بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد.
صنعاء ١٩٧٩.

٣٨- فالح حنظل:
معجم الألفاظ العامة في دولة الإمارات العربية المتحدة.
أبو ظبي ١٩٧٨.

٣٩- القزويني: (ت ٦٢٨ هـ)
آثار البلاد وأخبار العباد.
دار صادر بيروت ١٩٦٠.

٤٠- القلقشندي: (ت ٨٢١ هـ)
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا.
القاهرة ١٩٦٣.

٤١ - كراتشكوفسكي:
تاريخ الأدب الجغرافي العربي.
ترجمة صلاح الدين هاشم.
القاهرة ١٩٥٧.

٤٢ - ماركو بولو:
رحلاته.
ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد.
القاهرة ١٩٧٧.

٤٣ - الشيخ محمد بن أحمد الخزرجي:
العادات والتقاليد في دولة الإمارات العربية المتحدة.

٤٤ - المسعودي: (ت ٣٤٦ هـ)
أبو الحسن علي بن الحسين.
مروج الذهب ومعادن الجوهر.
بيروت ١٩٨٣.

٤٥ - المعجم الوجيز:
(نشر مجمع اللغة العربية).
القاهرة. ١٩٨٠.

٤٦ - المقريزي: (ت ٨٤٥ هـ)
تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي.
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.
القاهرة ١٢٧٠ هـ.

٤٧ - المقدسي: (ت ٣٨٧ هـ)
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر.
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.
ليدن ١٩٦٧.

٤٨ - مؤلف مجهول:
تاريخ أهل عمان.
تحقيق د. سعيد عاشور.
عمان ١٩٨٠.

٤٩ - الميداني: (ت ٥١٨ هـ)
أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد النيسابوري.
مجمع الأمثال.
دار القلم - بيروت.

٥٠ - **Miles: (S.B.).**
The Countries and Tripes of the Persian Gulf.
(Frank. Cases, 1966.)

٥١ - ناصر خسرو: (ت ٤٨١ هـ)
علوي أبو معين.
سفرنامه.
ترجمة يحيى الخشاب.
القاهرة ١٩٤٥.

٥٢ - نجيب عبد الله الشامسي:
الإمارات في سفينة الماضي.
الإمارات العربية المتحدة.

٥٣- نعيم زكي:
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب.
القاهرة ١٩٧٣.

٥٤- الهمذاني: (ت ٣٣٤ هـ)
الحسن بن أحمد بن يعقوب.
صفة جزيرة العرب. صنعاء ١٩٨٣.

٥٥- **Heyd:**
Histoire de commerce au Levant au moyen âge.
(Leipzig, 1925).

٥٦- **Wilson: (Arnold. T.)**
The Persian Gulf.
London, 1959.

٥٧- ياقوت: (ت ٦٢٦ هـ)
شهاب الدين أبي العباس بن عبد الله الحموي الرومي.
معجم البلدان.
دار صادر بيروت.

٥٨- يحيى بن ماسويه (ت ٢٤٣ هـ)
يحيى بن ماسويه الحراني.
الجواهر وصفاتها وفي أي بلد هي
وصفة الغواصين والتجار.
القاهرة ١٩٧٧.

٥٩- اليعقوبي: (ت ٢٨٢ هـ)
أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب: تاريخه.
دار صادر - بيروت.

الفهرس

المقدمة ٥
زيارة ابن بطوطة لظفار ١٠
ميناء حاسك ٤٥
رباط جبل لمعان ٤٨
جزيرة الطير ٥١
جزيرة مصيرة ٥٦
مدينة قلهات ٥٧
الحياة في عمان ٦٥
هرمز ٧٥
جزيرة كيش ٨٦
البحرين ١٠١
الخاتمة ١٠٧
المصادر والمراجع ١١٠

دبي - طريق النفق - بناية الشيخ راشد القديمة.
هاتف ٤٣٣٨٨٦ - ص.ب ١١٨١٧ - برقياً: قلمكم - تلكس ٤٦٩٦١ متحالم